'الأخلاقيات' في أعمال الشاه ولي الله الدهلوي بإشارة خاصة إلى 'حجة الله البالغة'

مقالة جامعية قدمها في جامعة جواهرلال نهرو لنيل شهادة

مـــا قبل الد كتـــوراه

من

تاج الدين ا. اس.

تحت إشراف

دكتور/ رضوان الرحمن

مركز الدراسات العربية والأفريقية

مدرسة دراسة اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهرلال نهرو - نيو دلهي - ١١٠٠٦٧

٢٠٠٧

مركز الدراسات العربية و الأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

DECLARATION

18th July 2007

I declare that the dissertation entitled "**'Ethics' in the Writings of Shah Wali Allah al-Dihlawi with Special Reference to 'Hujjat Allah al-Balighah'**" submitted by me is in the partial fulfillment of the requirements of the award of the degree of **Master of Philosophy** of this university. This dissertation has not been submitted for any other degree of this university or of any other universities and is my own work.

THAJUDEEN. A.S
(Research Scholar)

Prof: F.U. Farooqi
(Chairperson)

Dr. Rizwanur Rahman
(Supervisor)

Gram : JAYENU Tel.: 2670 4253 TELEX : 031-73167 JNU IN Fax : 91-11-2671 7525

المحتويات

كلمة الشكر

المقدمة ١

الباب الأول: الأخلاقيات الإسلامية والفلسفية ٦

الفصل الأول : الأخلاقيات – نظرة عامة ٨

الفصل الثاني: الأخلاقيات الإسلامية ٢٢

الفصل الثالث: الأخلاقيات الفلسفية ٢٧

الباب الثانى : الشاه ولي الله الدهلوي: حياته وأفكاره ٤٠

الفصل الأول : حياته ٤٠

الفصل الثاني: أفكاره ٥١

الفصل الثالث: مصادر أفكاره ٦٨

الباب الثالث : حجة الله البالغة: دراسة تحليلية في ضوء الأخلاقيات ٧٢

الفصل الأول : المضمون في الحجة ومنهجه فيها ٧٤

الفصل الثاني: القيمة العلمية للكتاب ٨١

الفصل الثالث: الأخلاقيات في أعمال الشاه ولي الله الدهلوي ٩٨

الخاتمة ١١٥

المصادر والمراجع ١٢٢

كلمة الشكر

بسمك اللهم وبحمدك حمدا معترفا بجليل نعمتك وأذكرك وأشكرك. أصلي وأسلم على أشرف رسلك وآله وصحبه أجمعين.

وهذه محاولة متواضعة لكشف الغطاء عن الأخلاقيات في أعمال الشاه ولي الله وتأثيرها في الأمة المسلمة في عصره. وقد بذلت جهودي في هذا السبيل. وساعدني في دراستي أساتذتي وزملائي وأصدقائي. فأدين لهم بالشكر والدعاء.

أشكر أولا لمشرفي الدكتور رضوان الرحمن. فله الشكر الجزيل. كافأه الله بمزيد من العلم والخير. كما أشكر الأستاذ إحسان الرحمن والأستاذ محمد أسلم الإصلاحي والأستاذ فيضان الله الفاروقي والدكتور بشير أحمد الجمالي والدكتور مجيب الرحمن.

لن أنسى أمي الحنونة كانت لا تزال وستزال مرشدتي في حياتي وزوّدتني بمساعدة مالية ومعنوية لدراستي. أسأل الله أن يجزيها وأبي جزاءا يوافي خيرهما وإحسانهما.

ولا يوفي حق هذه الأطروحة إن لم أتقدم الشكر والإمتنان إلى موظفي مكتبة جامعة جوهرلال نهرو ومكتبة جامعة عليكره الإسلامية وأصدقائي فيها ومكتبة جامعة الملية الإسلامية ومكتبة جامعة همدرد ومكتبة جامعة كيرلا بكاريوتم ومكتبة الجماعة الإسلامية ومكتبة IOS وإلى الدكتور غلام يحى أنجم رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة همدرد وإلى الدكتور عبيد رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كيرلا لما زوّدوني بالمصادر والمراجع.

أشكر جميع أساتذتي الكرام لإرشادهم واقتراحهم. وأنهم أضافوا في علمي ومعرفتي واجتهدوا لنجاتي في الدارين وخاصة الأستاذ ناظم الدين المناني والأستاذ أبوبكر الفيضي والأستاذ موسى كتي حضرت والأستاذ بيران كتي حضرت والأستاذ شمس الدين القاسمي والأستاذ إلياس الباقوي والأستاذ شاجر الدين الداعي والأستاذ عبد الحميد القاسمي والأستاذ عبد الرحيم الأحسني والأستاذ إسحق الباقوي والأستاذ عبد الناصر المعدني ورؤساء 'دكشن كيرلا جمعية العلماء'. وأشكرهم شكرا جزيلا من أعماق قلبي.

وأتذكر الآن مع الشكر الجزيل أعضاء عائلتي وأقربائي والذين وأحبائي والذين حفزوني على الدراسة ووهبوا لي المعاونة طول حياتي كما أتذكر الدكتور نزارالدين أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة كيرلا والدكتور عبد العزيز محاضر كلية إقبال ببرنغنملا. أسأل الله أن يجمعهم وإياي في دار النعيم.

وأنتهز هذه الفرصة لأشكر جميع أصدقائي الذين قاموا بمساعدتي كلّما احتجت إليها لا سيما أيوب الوافي وجعفر الذي قد نضّد الباب الثاني وسهيل وفيصل الهدوي وشكيب ونوشاد وجابر الهدوي وعبد الرؤوف وحافظ الرحمن وأنيس وجمال محمد وأسل خان وحارث الهدوي.....فجزاهم الله أحسن الجزاء.

نسأل الله أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم. وبه التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، أشهد أن لا إلـــه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيّدنا محمدا عبده ورسوله، الصلاة والسلام على سيد المرسلين وصاحب الخلق العظيم محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(٣:١٠٢). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١-٧٠: ٧). قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٦:١٤٩).

أما بعد ، فلا يخفى على الجميع أن الله سبحانه وتعالى أوجدنا على وجه هذه البسيطة لتحقيق العبودية المطلقة له تعالى قولا وعملا وفعلا واعتقادا وسلوكا ومنهجا. وأمرنا بالتزام ذلك والتمسك به والدعوة إليه باللسان والسنان والحجة والبيان. وطلب منا سبحانه الوقوف بقوة المؤمنين وحزم الصادقين في وجوه الضالين والمنحرفين ومواجهة الداعين إلى اتباع خطوات الشيطان الرجيم.

هذه محاولة صغيرة ليصل بها إلى 'الأخلاقيات' التي بيّنها الإمام الدهلوي في أعماله لاسيما في كتابه المشهور "حجة الله البالغة". قد اخترت هذا الموضوع

لأن العهد المعاصر بعد حادثة ١١/سبتمبر ينظر إلى الإسلام بعين الشبهة والشك والإرتياب. لعلّـــي أطلع بأن هذا العصر متشابه بعصر الإمام الدهلوي، لأن انحطاط أحوال المسلمين قد وقع فى هذين العصرين بسبب الملوك المسلمين وأمراء الأمة المسلمة وإن كان هناك ملوك المغول فهنا ملوك البلاد الإسلامية والعربية.

كان الشاه ولي الله الدهلوي إمام الفكر في عصر انحطاط المسلمين ومفكرا فيلسوفا وداعيا مجددا وعالما صوفيا ومفسرا نابها ومحدثا فقيها. وكان محب الحكمة وصديقها .

وكان الإمام الدهلوي عارفا بتحديات العصر حينما شمّر عن ساق الجد للقيام بهذه المهمة العظيمة من تدويش الشريعة الاسلامية على أساس المصالح المرعية للاحكام. فقد زوّد نفسه بالفكر وقوّة البيان معا. وكان يعرف بأن مثل القيام بهذه المهمة الشاقة مثل الركوب على متن الليث. فقد استخدم هذه المحاورة، فقال:

" ومن المثل السائر في الورى ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا "

وهو ناطق ذروته وحكيمها وقائد طبقته وزعيمها ولد في بيت علم ودين. قال الكتانى : "أحيى الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديثَ والسنة بالهند". (فهرس الفهارس-١/١٧٨). وتتميز كتبهم بميزات لم تتوفر في مؤلفات أحد من العلماء الهنود عميق الفكر وغزارة العلم وسعة الإطلاع وفصاحة اللغة وعذوبة الأسلوب وسهولة البيان. ويبدو الدهلوي في الحجة محدثا متمكنا وفقيها متعمقا وفيلسوفا متأملا وأديبا متضلعا وصوفيا متنسكا وباحثا متدفقا.

وله قصائد غرّاء في مدح النبي صلعم جمعت بين جزالة اللفظ ورقة المعنى وقوة السبك وعمق الفكر. ومنها قصيدة أطيب النغم في مدح سيّد العرب والعجم. وأنه لم يبدأ قصائده بالغزل ولا بالبكاء على الديار ومن شعره:

كأن نجوما او مضت في الغياهـــب عيون الأفاعي او رؤوس العقارب
إذا كان قلب المرء في الأمر خائرا فأضيق من تسعين رحب السباسب
وتشغلنى عنّي وعن كلّ راحتـــــي مصائب تقفو مثلها في المصـــائب

إلى أن يقول :

فمن شاء فليذكر جمـــــــال بثينة ومن شـــــاء فليغزل بحب الزيانب
سأذكر حبـــي للحـــبيب محمـــــد إذا وصـــــف العشاق حب الحبائب

وقد بذل الإمام الدهلوي جهوده لتنمية عقول المسلمين بإظهار أسرار الشريعة. لأنه قد آمن بأن النجاة في الدنيا والآخرة لا تحصل إلا بالأعمال الصالحة والعبادات. فقد جاء إلى عقول المسلمين شك وريب عن الشريعة في عصر الإمام الدهلوي. بل تخلف الأمة المسلمة عن إنجاز وعد الرسول الكريم صلعم. فحزن الإمام الدهلوي بسبب أحوال الأمة. فعزم أن يجهد لهذه الأمة. لأن له إيمان بأن المسلمين سوف يرجعون إلى الإسلام كاملا لماّ تفهّموا الإسلام حق الفهم. فسبب الإنحطاط هو جهل الأمة عن الإسلام. فتهيأ لهذا الجهد. وجهّز قلمه لهذا. فظفر به وفاز فوزا عظيما. لما تهيأ الدهلوي أفاض الله عليه التوفيق من فيوضاته.

قد اخترت أن أبحث عن الأخلاقيات في أعماله. لأن عليها مدار صلاح الناس في حياتهم. فتبين أن اعتناء المؤمن بتقويم أخلاقه هو مهمته التي ينبغي أن يفكر فيها ويدأب عليها. ولذلك جاءت معظم دروس أعمال الإمام الدهلوي تعالج موضوع هذه الأخلاق والتذكير بها وكيفية اكتسابها.

أن الخلق العظيم مقترن بالعقل العظيم. وإن كان الرجل مجنونا لما أمكن صدور الأخلاق العظيمة منه. فإن الخلق العظيم منهج سويّ في الحياة لاستقبال أحداث الحياة والتعامل معها. ولا يكون إلا من صاحب العقل الواسع. لأجل ذلك جاء في تعريف العقل أنه ملكة في النفس تمنع صاحبها عن ارتكاب القبيح. لأجل هذا وجب على كل فرد من المسلمين أن يعتني بهذه الأخلاق في نفسه وفي أسرته ومن هو مسئول عنه. فالإمام الدهلوى العالم كان يؤمن بأنه سيسأل العالم عن أحوال قومه. يعني أن العالم هو مسؤول عنها. لأن العلماء هم ورثة الأنبياء وخليفتهم. فالأنبياء كلهم على طريقتهم الخاصة يعملون ويجهدون لتبليغ أمانتهم يعني الدين والشريعة.

فهدف الإسلام كـــدين من الأديان السماوية أن يبني الإنسان من جميع نواحيه. فشرع لأجل ذلك أحكاما كثيرة ووضع قوانين متعددة، وتوعّد من خالفها بالعقوبة ووعد من وافقها بالأجر والثواب. كل ذلك من أجل أن يحمله على التحلي بالقيم السامية والأخلاق الفاضلة. فالعمل بالأحكام الشرعية يشكل الحد الأدنى من هذه الأخلاق. هذا الحد الذي لا يمكن التهاون به والتسامح في تركه. وبلوغ هذا

الحد يؤسس لقيام عملية البناء الإنساني والتكامل البشرى من خلال التحلي بالأخلاق الكريمة التى تركت دون رتبة الإلزام الشرعي لكي يطلبها الإنسان من تلقاء نفسه رغبة في الوصول إلى مقام العبودية الحقيقة لله تعالى وخلافته في الأرض ونيل الأجر الجزيل والثواب العظيم على تطوّعه هذا. وفي هذا الميدان يتفاضل البشر شرفا و خسة و سموا و ضعة. فمن بلغ أعلى مراتبها بلغ درجة الكمال كالنبيّ وآله ثم الأدنى فالأدنى.

وهذه محاولة متواضعة لكشف الغطاء عن الأخلاقيات في أعمال الشاه ولي الله وتأثيرها في الأمة المسلمة في عصره. والهدف من خلالها انبعاث الأمة التي قد تركزت على السطحيات والشعائر الظاهرة مع الخلوّ التامّ من الأخلاقيات وروح الدين التي تتمحور الرسالة السماوية عليها مما أدّت إلى إثارة الخوف في الآخرين وعدم التمكن من إثرها للقيام بالمسؤولية الكبرى المنوطة بالأمة وتحقيق خير الأمة. فأودّ أن أشير من خلال هذا العمل بأن استرداد المجد لا طريق له إلا بالرجوع إلى الأخلاقيات من الخمول الذي قد أحاطها من جميع الجوانب لإعادة الحياة إلى نفسها في غضون وضع الكتاب في ضوء جديد لقرائة جديدة في العصر الراهن. والله الموفّق.

الباب الأول

الأخـــلاقيات الإسلامـــية والفلسفـــية

الفصل الأول : الأخلاقيات – نظرة عامة

الفصل الثاني : الأخلاقيات الإسلامية

الفصل الثالث : الأخلاقيات الفلسفية

الأخـــلاقيات الإسلامـــية والفلسفـــية

الأخلاق هي جمع خلق. والخلق هو صفة راسخة في النفس تدعوها إلى فعل الخير او فعل الشر كالشجاعة والجبن والظلم والعدل والكرم والبخل وما إلى ذلك. وبهذه الصفة يمتاز الإنسان عن سائر المخلوقات. لأن ما سوى الإنسان لا يدرك قيمة هذه الصفة ولا يهتم بها بل لم يؤهّله الله تعالى للتحلي بها. ومن هنا صح القول 'أن الأخلاق قيمة إنسانية'.

ومترادفه السليقة والطبيعة. وفي التنـــزيل: "وإنك لعلى خلق عظيم". والخلق معناه الخليقة يعني الطبيعة. ويقال خالص المؤمن وخالق الفاجر. وفي الحديث: ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق. الخلق بضم اللام وسكونها وهو الدين والطبع والسجية. وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنية أوصافها ومعانيها المختصة بها بمنـــزلة صورتها الظاهرية وأوصافها ومعانيها. ولهما أوصاف حسنة وأوصاف قبيحة. والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنية أكثر مماّ يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرية. ولهذا تكرّرت الأحاديث في مدح حسن الخلق. كقول الرسول صلعم: من أكثر ما يُدخل الناسَ الجنّةَ تقوى الله وحسن الخلق. وقولـــه: أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا. وقوله: إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم. وقوله: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.[1] قوله لمعاذ بن جبل(ر) يوما: خالق الناس بخلق حسن. وفي حديث عائشة(ر): كان خلقه القرآن تعني كان

---

[1] ابن المنظور: لسان العرب، نشر أدب الجوزة, إيران, ١٤٠٥هـــ, ص :١٠/٨٦، ٨٧.

متمسكا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وفي حديث عمر(ر): من تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، يعني تكلف أن يظهر من خلقه خلاف ما ينطوي عليه. وكذلك جاءت أبيات كثيرة تشمل هذه الكلمة كقول الشاعر سالم ين وابصة:

خـــالق الـــناس بخلق حســـن لا تكن كلبا على الـــناس يهـــزا

وكقول القناني في أمر الكسائي:

يـــــزن الكسائي الأغرّ خليقه إذا فضخت بعض الرجال الخلائق

يستعمل كلمة الأخلاقيات لثلاثة طرائق مختلفة في الفلسفة، وبينها تعلق وثيق. (١) "طريق للحياة" (a general pattern or way of life) (٢) "مجموعة قوانين الإدارة" (a set of rules of conduct or moral code) او "المدوّنة الأخلاقية" (Moral-Code) (٣) الإستعلام عن طرق الحياة وقوانين الإدارة (inquiry about ways of life and rules of conduct)[1]

ويمكن تقسيم هذا الباب إلى ثلاثة فصول، وهي (١) الأخلاقيات – نظرة عامة (٢) الأخلاقيات الإسلامية (٣) الأخلاقيات الفلسفية. فهذا التقسيم بالنسبة إلى سهل البيان لا بالنسبة إلى حقيقة الأخلاقيات. لأن لها أقسام كثيرة مثل الأخلاقيات الإنسانية والأخلاقيات الحيوانية والأخلاقيات الطبيعية وغيرها ليس المراد هنا أن يبيّنها كلّها.

[1] Paul Edwards (chief editor): The Encyclopedia of philosophy (V-3), The Macmillan company, New York, 1967, p : 81/3

الفصل الأول : الأخلاقيات – نظرة عامة

إن المسئلة الأخلاقية كانت جزءا من الفكر الديني الذي يقدم على عقول السائلين حلاّ إلزاميا يقرّ بما تأمر به التعاليم السماوية، وتنص عليه الكتب المقدسة. غير أن الإنسان ما لبث أن فلسفة عقله وقلبه انقلبت من حال الإيمان الطيب السادج السمح إلى إيمان معقد عقلي عسير. وأخذ العقل يثبت حقه في البحث بالوقائع الأخلاقية على ضوء مبادئ الفكر ونور التجربة وهدى التاريخ. فانتقلت المسئلة الأخلاقية بذلك من مستوى الدين الآمر والفكر اللاهوتي إلى مستوى التأمل الواعي والفكر الإنتقادي وأصبحت قواعد الأخلاق موضوعا من مواضع الثقافة الإنسانية وتعالج الفلسفة أسبابه ونتائجه وتحدد قيمه وأهدافه ومعاييره.

إن المعرفة الأخلاقية قد تنهج أحد سبيلين. سبيل الإعتقاد العفوي والتقليد والمحاكاة، وسبيل الفهم الإنتقادي والإقتناع الفكري. نعم أن أطفالنا يسمعون بوجود الأخلاق وأن تلاميذنا يصغون إلى دروس في الأخلاق وأن شعبنا يؤمن بالوعظ الأخلاقي، ولكنّهم جميعا يعتنقون في سلوكهم وثقافتهم نوعا من الأخلاق يمكننا أن نطلق عليه إسم الأخلاق الإعتقادية أخلاق العمل الملح القريب. أما الباحث الناقد والمفكر المدقق فيعتبر الأخلاق موضوع نظر فلسفي. ولذا يصح أن تدعى معرفة الأخلاق من وجهة نظره بالأخلاق الفلسفية ويدعى هو باحثا نظريا في الأخلاق وتعرف ثقافته بأنها ثقافة انتقادية واعية.

نستطيع أن نرى سبب اتفاق الباحثين عادة في تمييز نوعين من الأخلاق

(١) أخلاق عامة أو نظرية (٢) أخلاق خاصة أو عملية. ويكاد تعليم الأخلاق من الناحية الإعتقادية أن يقتصر على مجال الأخلاق العملية. أي الأخلاق من حيث انقسام الأعمال الإنسانية إلى فئتين اثنتين لا ثالث لها ولا وسط بينهما هما فئة الأعمال الصالحة الطيّبة وفئة الأعمال الطالحة . وهذه الأخلاق الموسومة بأنها "أخلاق عملية" لا تخرج كلها عن دائرة الواجبات الجزئية مثل واجبات المرء نحو نفسه وواجباته نحو غيره من الناس، ونحو المجتمع ونحو الوطن ونحو الله. وهنا يعنى في أعمال الشاه ولي الله الدهلوي يمكن أن نرى أنه يبيّن واجبات المرء نحو الله. بل أنه يجتهد أن يبيّن المصالح والفوائد والجزاء المناسبة من الأعمال والأحكام الشرعية. إن الأخلاق الدينية مثلا تبني الواجب على إرادة الله. والعامة المقلدون لا يشعرون بالإحتياج إلى التعمق والكشف عن سبب آخر ينير قناعتهم الأخلاقية إلى جانب السبب الأوحد الذي يكفيهم وهو إطاعة تعاليم الربّ، والخضوع على نحو ثابت خضوعا كاملا كليا إلى أوامره ومشيئته.

أما الفيلسوف مثل الشاه ولي الله لا يبطل عمل الفكر. ولا يميت إمكان التعقل، بل يطلب معرفة الأسباب معرفة واعية انتقادية ويقف أمام ما يتراءى للعامة أمرا بديهيا فيتحرى قيمته ويسعى إلى اكتشاف ما يسوغه ويبرره ويحاول تحديد الخير وتمييزه عن الشرّ وينشد معرفة أساس الأخلاق وتقدير ظروف الواجبات الجزئية. وما يلابسها وهو لا يقتصر على تبيان الواجبات الخاصة المحددة وإنما يدرس الواجب ذاته محاولا أن يجيب دائما على سؤال: لماذا؟

إن الشاه ولي الله صرح هذا الأمر في مقدمة كتابه "حجة الله البالغة" بقوله:-

"قد يُظنّ أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح وأنه ليس بين الأعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة... وأن مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده فأمره برفع حجر او لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الإختبار فلما أطاع اوعصى جوزي بعمله. وهذا ظنّ فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير."[1]

وبعد هذا يقول الدهلوي عن النية ومنافع الأعمال. يعني يثيب الله أعمال الخلق بقدر النيات. لكن ولله إرادة خاصة عند أمره أمرا للخلق. وفي بعض الأحوال يستطع الإنسان أن يطلع إلى هذه المنافع. وفي بعض الأحوال لا يستطيع. وإن كان الناس يفهمون ام لا، لله في أوامره مراد خاص بها. والله يُطلِع هذه المنافع لخواص الذين إختارهم الله لهذا. ومنهم الشاه ولي الله الدهلوي. فيجهد الدهلوي بهذا الكتاب أن يظهر هذه المنافع التي اطّلعها الدهلوي في جميع أحواله. وإن كان جمهور الناس غافلين عنها.

هذا ما جاء في مقدمة كتاب واحدٍ لـــه. تستطيع أن ترى ما يماثل بهذا في غير هذا الكتاب. وأن من يدرس شخصية الشاه ولي الله الدهلوي من أعماله يصادفه تياران متمايزان في فكره وفلسفته. كما قاله البروفيسور محمد ياسين مظهر الصديقي:-

---

[1] حجة الله البالغة، ص:١/٤

"ويمكن أن نفهم أفكار الدهلوي على مستويين: الأولى إيضاحي والثانية فلسفي. وفي بعض الأحيان نرى كليهما في كتاباته. لأن أفكاره الفلسفية في غصون توضيحه. وفي بعض أعماله نرى هذين التيارين متمايزين تماما. ولكن لا ينقض أحدهما الآخر بل يؤيده. ويتعين الموضوع الذي يعالجه طريقه. ولماّ يناقش الأفكار الدينية والتصوف والقيم المبادئة للتعليم والمعرفة أنه يكون أفضل موضح يوضح نقاطه بصورة تثير الإعجاب. ولكنه نراه فلسفيا عندما يبحث الموضوعات الخفية وأسرارها".[1]

ومن هذا القول يفهم أن الشاه ولي الله الدهلوي حينما يحاول إبراز الجوانب الباطنية لهذه العلوم والمعارف وتسليط الأضواء على حقائقها يتسم أسلوبه بالطابع الفلسفي ويرتفع فكره إلى الذروة وعقلانيته إلى القمة ومن هذه الموضوعات مثل مباحث الذات والصفات وذكر الملأ الأعلى وذكر الملائكة وذكر حظيرة القدس وعالم المثال والأرواح والتجليات والتجلي الأعظم والوحي والإلهام والإلقاء والنبوة والرسالة والكلام الإلهي، والآخرة والمعاد وحشر الأجساد يوم القيامة وذكر الروح والنسمة والنفس الناطقة وغيرها. وكذلك يحيط قلمه لآلي الحكمة والعرفان حين يرفع اللثام عن أسرار العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

أريد أن أورد كلام فيلسوف كبير وهو: "جائز أن ننقسم المذاهب الأخلاقية

---

[1] Prof. Abdul Rahim Kidwai: Shah Waliullah Dehlavi-An Introduction To His Illustrious Personality And Achievements (Translation of Prof. Mohammed Yasin Mazhar Siddiqui's Urdu book), Shah Waliullah Dehlavi Research Cell, Institute Of Islamic Studies, Aligarh Muslim University, Aligarh, 2001, p. 28

الكبرى إلى قسمين رئيسيين. مذاهب دينية ولاهوتية ومذاهب فلسفية عربية وغير عربية"، ففلسفة الإمام الشاه ولي الله الدهلوي تدخل في القسم الأول يعني مذاهب دينية.

والأعمال إنما تعتبر بالأخلاق التي تنشأ منها. ونشير هنا إلى قول صاحب[1] "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق": كل ما ينبغي لـــه أن يكون خيرا من الناحية الأخلاقية لا يكفن فيه أن يكون مطابقا للقانون الخلقي. بل لا بد لـــه كذلك أن يحدث من أجله، وإلاّ لكان هذا التطابق من قبيل الصدفة وكان تطابقا فاسدا ذلك لأن القاعدة غير الأخلاقية قد تتولد عنها من حين إلى آخر أفعال مطابقة للقانون. ولا يعني بذلك ان هذا النوع من التفكير يوافق من جميع الوجوه بما ذكره الدهلوي في مقدمة الكتاب "حجة الله البالغة" (قد يُظنّ أن الأحكام الخ)

وليس الدهلوي أول من شرح هذا المعنى، قد تكلم فيه الإمام الغزالي من قبل. فقال في المضمون الكبير: "إن تكليف الله تعالى عباده لا يضاهي تكليف الإنسان عبده الأعمال التي يربط بها غرضه وما لاحظ لـــه فيه وما لا يحتاج اليه فلا يكلفه به. بل أن تكليف الله عباده يجرى مجرى تكليف الطبيب المريض فأن وفّق المريض حتى وافق الطبيب شفى وتخلص. وإن لم يوفق فخالفه تمادى به المرض وهلك. وبقاءه وهلاكه عند الطبيب سيان. وللنفوس طب كما أن للأجساد طبا. ورذائل الأخلاق مهلكات في الآخرة كما أن رذائل الأخلاط مهلكات في

---

[1] كانط (Kant) :(ترجمه الدكتور عبد الغفار مكاوى) الهيئة المصرية، ١٩٨٠، ص:٩

الدنيا. والمعاصى بالإضافة إلى حياة الآخرة كالسموم بالإضافة إلى حياة الدنيا. فالسؤال عن انه لم تفضى المعصية إلى العقاب كالسؤال عن أنه لم يهلك الحيوان عن السمّ. ولم يؤدى السمّ إلى الهلاك، ولِـــم خُلق جسد الإنسان على وجه يفعل فيه السم أثرا وينفعل البدن عنه. فكذلك الكلام في أنه خلق الله تعالى نفس الإنسان على وجه تكملها وتنجيها الفضائل وتهلكها الرذائل".

فالفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة مبناه هنا على ما يبذله الإنسان من أجل هذه الغاية بإفضاء السبب إلى المسبّب وعماد الفكرة على ما ذكره الإمام الغزالي في ميزان العمل من قوله: "يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه". وقد صاغ العلامة اقبال هذه الفكرة نفسها. فقال بعبارة أخرى: "إن الخلق ينـــزع إلى الإستدامة".[1]

وإذا كان عنصر التجربة يعني الجانب العملي او التطبيقي من الأخلاق فهناك عنصر آخر يتصل بالجانب العقلي حيث يذهب كانط (Kant) إلى أن قاعدة الإلزام في القانون الخلقي لا ينبغي أن تلتمس في طبيعة الإنسان ولا في ظروف العالم الذي وضع فيه. بل أنه لا بد من البحث عنها بطريقة قبلية في تصورات العقل وحدها، أي إن القانون الأخلاقي لا يستنبط من التجربة بل العقل هو الذي يأمر بما ينبغي أن يحدث وأن هناك بالتالي أفعالاً لعل العالم لم يضرب لها أدنى

---

[1] لجنة التأليف: تجديد التفكير الديني في الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، قطر، ص:١٤١

مثال حتى هذه اللحظة.[1] إنه قال: وليس في مقدور الإنسان أن يسئ إلى الأخلاق إساءة أبلغ من محاولة استخلاصها من أمثلة تجربية[2] لأنه يذهب إلى أن فلسفة الأخلاق لا يمكنها أن تقوم على معرفة بالموضوعات التي تعلو على العالم الحسي. فمثل هذه المعرفة مستحيلة بالنسبة لكائنات عاقلة متناهية في صميمها مثلنا.

الفرق بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الغربية

الأخلاق الإسلامية تدور على الأحكام الدينية والإلهية. ولكن الأخلاق الغربية تدور على الأحكام الفردية لكل واحد من الأشخاص. فللأخلاق الإسلامية قوانين خاصة ولكن لا يرى مثل هذه القوانين في الغرب. وكذلك الأمر بالمعروف واجب لكل واحد من المسلمين. قال تعالى:

" وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[3]

وقال أيضاً:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ"[4]

وقال أيضاً:

---

[1] كانط: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق (Metaphysics of Morals) ، ص:٤١.

[2] المصدر السابق: ص٤٢

[3] القرآن: ٣/ ١٠٤

[4] القرآن: ٣/ ١١٠

"لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ"[1]

فتوجه علاقة روحية بين المسلمين. وكذلك يرى في الإسلام آيات وأحاديث تأمر بالأخلاق الحسنة. وقد ورد وعيد بالعقاب إن لم يفعل بالأخلاق الحسنة. هذا لم ير في الأخلاق الغربية. فهناك يرد مشكلات كثيرة. لأنه الأمر الواحد ضد للأخلاق عند رجل واحدٍ. ولكن هذا الأمر ليس ضدا للأخلاق عند الرجل الآخر.

كذا أثبت الإسلام الأمور الكثيرة الأخلاقية التي كانت في العصر الجاهلي في أحكام الدين. يعني اعتبر الإسلام كثيراً من سنن المتقدمين حسنةً. ولكن الغرب لم يعتبره. بل قالوا أن سنن المتقدمين من السنن التي وقعت موافقا لحالاتهم. فنحن المتؤخرون نعيش في القرن المقدم والحديث.

الأخلاق هدف الأنبياء

قال رسول الله صلعم: عليكم بمكارم الأخلاق. فإن الله عز وجل بعثني بها. وقال أيضاً: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

هذا يدل على أن الأخلاق الكريمة هي الهدف الأسمى لبعث الأنبياء . وقد جاء السابقون على رسول الله صلعم من الأنبياء ببعض هذه الأخلاق. وجاء رسول

---

[1] القرآن: ٣/ ١١٣-١١٤

الله صلعم ليتمم ما نقص منها ويبين مالم يبينه من سبقه من الأنبياء. وإن كانت مكارم الأخلاق هدف الأنبياء فمعنى ذلك أن تكامل أخلاق الإنسان لا يكون إلا بواسطة التحلي بهذه الأخلاق الحسنة. ولهذا بعثهم الله تعالى ليبينوها للناس ليكونوا مثلا عليا ونماذجاً حية يقتدي بهم. وقد بلغ رسول الله صلعم أعلى رتبة من رتبة التكامل الإنساني بالأخلاق السامية حتى استحق مدح الله تعالى بقوله "وإنك لعلى خلق عظيم".

قرّر علماء الأخلاق أن عملية التكامل لا يمكن لها أن تنطلق في طريقها الصحيح الأمن خلال تهذيب النفس وتصفيتها من شوائبها أولا ثم تزيينها بمكارم الأخلاق ومحاسن الطباع وهذا ما يستلزم المرور بمرحلتين (١) مرحلة التخلي (٢) مرحلة التحلي. الأول التخلي من خبائث الطباع ورذائل الأخلاق. وذلك ضمن عملية ترويض للنفس وقولها وتطهيرها من الأدران والأوساخ المسماة بالصفات المهكة. والثاني عملية إعادة بنائها من جديد على ضوء ما جاء به الأنبياء والأئمة المعصومون من الدعوة إلى التطبع بطباع فاضلة وتزينها بمكارم الأخلاق المسماة بالصفات المنحية.

أمهات الأخلاق وأصولها

أمهات الأخلاق أربعة على وجه معظم العلماء. وهي (١) الحكمة (٢) الشجاعة (٣) العفة (٤) العدل بين الشجاعة والعفة. وباقي الأخلاق فروعها. هذا لا يغاير ما سجيء من قول الدهلوي في كتابه "البدور البازغة" بأن حقائق الأخلاق

الفاضلة هي سبعة. لأن هذه الأربعة أصول والبواقي فروعها.

فمن الحكمة يحصل التدبير وجودة الذهن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن الشجاعة يصدر الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والإحتمال والثبات وكظم الغيظ وأمثالها. ومن العفة يصدر السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة واللطافة والورع وقلة الطمع. وبالعدل يكون ضبط الشهوة والغضب وحمل النفس على مقتضى الحكمة بلا إفراط وتفريط.

هل تقبل الأخلاق التغيير ام لا ؟

وفيه قولان:

قد ذهب بعض العلماء إلى أن الأخلاق لا تتغير. والطباع تبقى على حالها. وهم رأوا الإستثقال في المجاهدة والرياضة والإشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق. وادّعوا بأن الخُلق هو صورة الباطن كما أن الخَلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر تحسين صورته. فقالوا بأن القبح الباطن وسوء الأخلاق يجريان هذا المجرى. يعني لا يتغيران قط.

فوجّه الجمهور ومنهم الإمام الغزالي والشاه ولي الله الدهلوي بأن الأخلاق تقبل التغيير. ولهم ردّ واضح على من يدعى بأن الأخلاق لا يمكن أن تتغير للأحسن فقالوا: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ

والتأديبات. أيضاً قول رسول الله صلعم جواب ما ادّعوا: [حسنوا أخلاقكم]

وبديهي أن تغيير خُلق البهيمة واقع، فكيف ينكر تغيير الأخلاق في حقّ الإنسان. إذ ينقل الفيل الوحشى إلى الفيل البلدى والبازي ينقل من الإستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره إلى التأدب والإمساك، والفرس من الجماح إلى السلاسة والإنقياد. كل ذلك تغيير للأخلاق وكذلك الغضب والشهوة وهما جماع الشر أن خلتا من الاعتدال لوأردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا. ولوأردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى معرفة الله تعالى، ولكن طبائع الناس مختلفة. فبعضها سريعة القبول للتحسن وبعضها بطيئة والسبب في ذلك أن الخلق قد يتأكد ويستشرى في الإنسان بكثرة ممارسته والإنقياد لـــه.

تقسيم الأخلاق إلى الحسنة والسيئة

قال رسول الله صلعم: أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم خلقا (أخرجه أحمد والترمذي واللفظ لـــه)

وقال أيضاً: إن من أحبكم إليّ و أقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا (أخرجه الترمذي وحسنه)

وقال أيضاً: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

وقال أيضاً: ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن

الخلق فإن الله يبغض الفاحش البذي.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله صلعم من أحسن الناس خلقا (أخرجه البخاري ومسلم)

قال الله تعالى: ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (القرآن: ٣٤/٤١) وقال رسول الله صلعم: حسنوا أخلاقكم.

ومن هذه الأقوال الشريفة يفهم أن الأخلاق قسمان، حسنة وسيئة. فكلمة "Ethics" الإنجليزية يترجم إلى العربية بـــ" الأخلاق" في المعاجم.[1] ولكن هذه الكلمة (الأخلاق) ليست جامعة لمعنى كلمة "Ethics". لأن "Ethics" معناه"الأخلاق الحسنة".

أصحاب الأخلاق السيئة

وهم على أربعة أصناف.[2] هم مزيج في المجتمع. وننظر إلى هذه الأصناف وصفاتهم.

الصنف الأول:- هو الإنسان الغافل الذي لا يميز بين الحق والباطل ولم يجد لـــه مرشدا صادقا ولم تستتم شهواتِه باتّباع اللّذّات كالصبية في الشوارع والمقاهي ودور السينما الذين يرتفعون أصواتهم بالضحك والصراخ. وهذا النوع سريع القبول

---

[1] منير البعلبكي: المورد (قاموس إنكليزي- عربي)، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢، ص:٣٢١

[2] الشيخ حسن الشريف (مؤسس دار الايمان): قابلية التهذيب، عمان، ١٩٩٦

للعلاج.

والصنف الثاني:- من عرف قبح القبيح ويمارس الأعمال السيئة ولم يتعود العمل الصالح. وعلاج هذا الإنسان ليس بسهل مثل الأول. لأنه يحتاج إلى استئصال الأعمال السيئة وغرس الأعمال الحسنة كالذين يتعاطون المخدرات ويقترفون الزنا ولكنهم يشعرون بالخطأ ولا يخلصون منه. ولكنه قابل للرياضة أن انتهض لها بجد وتشمير.

والصنف الثالث:- من يعتقد عن الأخلاق القبيحة بأنها حسن وجميل كالذين يمارسون جرائمهم بمتعة ويبررونها. وهذا النوع يكاد تمتنع معالجته لتضاعف أسباب الضلال.

والصنف الرابع:- هم الذين نشأوا على الرأي الفاسد والعمل به. والفضيلة عندهم كثرة الذنوب ويتباهون في ذلك كالتجار الذين يصدرون المواد الإستهلاكية الفاسدة التي لا تصلح للإستعمال البشرى وتسبّب في الأمراض. وهؤلاء أصعب الناس في العلاج.

والأول من هؤلاء الأصناف الأربعة جاهل قطعا والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير.

فائـــــدة

ليس المراد بالمجاهدة والتزكية قمع الصفات النفسانية بالكلية ومحوها

كاملا. فإن الشهوة خلقت لفائدة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. قال تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض". وقال الإمام الغزالي في كتابه 'إحياء علوم الدين' منسوبا إلى الإمام الشافعي: من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان.[1]

فليس المطلوب إماطة الصفات بالكلية بل المطلوب ردها إلى الإعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو من التهور ومن الجبن جميعا وأن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل والشرع ولذلك قال تعالى: "أشدّاء على الكفار رحماء بينهم" وصف الله تعالى الصحابة بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب وأن بطل الغضب لبطل الجهاد. وقد كان صلعم يغضب لله فقال (إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر) هذا حال جميع الأنبياء وكان صلعم إذا سمع ما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا ولا يخرجه غضبه عن الحق.

قال الله تعالى في سورة آل عمران (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) ولم يقل سبحانه تعالى هنا "والفاقدين الغيظ" بدل "والكاظمين الغيظ". فردّ الله الغضب والشهوة إلى حد الإعتدال بحيث لا يقهر واحد منها العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما. هذا هو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما

[1] الامام الغزالي: احياء علوم الدين، ص: ١٨١/٣

TH-14068

تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الإنبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الإعتدال فدلّ أن ذلك ممكن وبالتجربة قد أثبت ذلك. والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أنثى الله تعالى عليه وقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال أيضاً (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الإعتدال دون الشره والجهود وقال صلعم: خير الأمور أوسطها.

قال الإمام الشافعي(ر):-

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساوي

والإسلام لا يريد منا أن ننظر بعين الرضا ولا بعين السخط ولكن يريد منا أن ننظر بعين التقوى.

الفصل الثاني : الأخلاقيات الإسلامية

أن المكتبات الإسلامية زاخرة بالمؤلفات العديدة الضخمة في التشريع الإسلامي وفي شتى فروعه. لكن لا نتجاوز الحقيقة إذا اعتبرنا أن المكتبات الإسلامية لم تزل فقيرة في المؤلفات التي تبحث أسرار التشريع الإسلامي وفلسفته.

ومنذ أن ألّف حجة الإسلام أبو حامد الغزالي المتوفى في أوائل القرن السادس الهجري كتابه الجليل "إحياء علوم الدين" وضمن الكثير من أسرار التشريع

الإسلامي وفلسفته لم تحظ المكتبة الإسلامية إلا بالقليل النادر في هذا المجال، وحتى هذا القليل النادر جعل كتاب الإمام الغزالي عمدته في البحث.

ولا جدال في أن المفكرين الإسلاميين الهنود سبقوا في هذا المضمار في القرون الثلاثة الأخيرة، ومن أبرزهم ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة. هذا وقت السرور لمن أحبوا أسرار التشريع الإسلامي وفلسفته لأن دار الكتب الحديث بالقاهرة تقدم الطبعة الرابعة لهذا الكتاب في الأيام الأخيرة (في السنة الأخيرة) إلى المكتبة العربية والإسلامية مع التحقيقات بالشروح. هذا الكتاب موافق ليسد فراغا لا يسده كتاب غيره إلى جانب شقيقه "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي.

نمت الأخلاقيات الإسلامية بشكل تدريجي في القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي، ولم تؤسس العناصر المختلفة التي منها تركبت الأخلاقيات الإسلامية قبل القرن الخامس الهجري.

وظهرت الأخلاقيات الإسلامية متركبة بالتقاليد التي قبل الإسلام مع التعاليم القرآنية. ولكن عند الإغريق (اليونان) سارت قيم الأخلاق مع الأفكار الفلسفية معا بغير تأثير من التعاليم الأجنبية. ولكن في الإسلام كان شكلها الخاص مختلطا بالعناصر اليونانية والفارسية. ولكن الأخلاقيات القيمة كانت تتعلم بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة منذ بداية الإسلام كما سبق ذكره. بل أن قيمة حسن الخلق معروفة بين المتقلدين والفلاسفة والصوفيين والكتاب الذين يستهدفون إعطاء نصيحة عملية للحكام والموظفين المدنيين. ولكن أفكارهم عن الأخلاق الكمالية

مسحوبة من المصادر المختلفة. وعلى ذلك أن كلهم يحاولون التوافق إلى المعايير الأساسية للإسلام التي ليست في أنفسها ساكنة. ومن ثم امتدت عملية الإستيعاب والتكامل النهائي لهذه الإتجاهات المختلفة والمتعارضة على وقت كبير.

وقد تخلّف خطبات محمد صلعم التغيرات الجوهرية الواضحة في القيم الأخلاقية أيضاً، مستندة على عقوبات الدين الجديد وخوف الله عز وجل ويوم القيامة. الشفقة والعدالة والرحمة والكرم وضبط النفس والإخلاص. وكذلك قبل الإسلام أيضاً جاءت عناصر الأخلاقيات القيمة في الشعر الجاهلي. ولهذا يعرف زهير بن أبى سلمى شاعر الحكمة في العصر الجاهلي. إنه مدح هرم بن سنان وحارث بن عوف اللذين جاهدا لانتهاء الحرب. وهكذا يستطيع أن نرى الأبيات الحسنة التي تشتمل القيم الجيدة. وإن كان بين الأبيات خلاف ذلك الأكثر منها يشمل الأخلاقيات القيمة.

لما فُسّر أخلاقيات القرآن بالأحاديث قد استُعمِل كثيرٌ من القيم التي سارت في السابقين. حصلت هذه القيم لهم بالوراثة من المتقدمين. أهمية الأحاديث في تشكيل وإبقاء الأفكار الأخلاقية العامة في الأمة المسلمة في كل العصور وفي كل المناطق هي غير محدود. بل الأحاديث كلها كانت ذات مسؤولية كبيرة للإطار الأخلاقي في تنمية الشريعة الإسلامية. ويجوز أن يقال أن مجموعة الأحاديث الكاملة تشكل على شكل الكتيّب للأخلاقيات الإسلامية. ودون ذلك الأداء الصحيح للواجبات الدينية والفهم الصحيح للمذاهب الدينية كلهما عناصر متلازمة للحياة

الأخلاقية في رأي الإسلام العام. وكلمة أدب أيضاً كان يستعمل في الإسلام مكان الأخلاق بسبب تأثير الفرس. ولكن استعمال كلمة حسن الخلق في الأحاديث وغيرها من التقاليد كثير جداً. والحديث المشهور "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" يستعمل كثيرا عند بيان هذا الموضوع. وتحت هذا العنوان جمع كثير من العلماء أحاديث كثيرة. التي وردت في الأخلاقيات. ومن هؤلاء العلماء في القرن الثالث الهجري إبن أبى الدنيا والخرائطى والطبرسى وغيرهم.

وتطوّر الأفكار الأخلاقية ونقاءها على أساس الأحاديث الذي كان يساق بكلتي الحركتين السنيين في الإسلام اللتين بدأت نماءهما في القرن الثالث الهجري. وفي ناحية واحدة أنشأت المعتزلة القيم الأخلاقية بواسطة ومساعدة الفلاسفة اليونانية. والمعتزلة خلطت ومزجت الأخلاقيات الإسلامية بالأخلاقيات اليونانية وفي ناحية أخرى جاءت الصوفية بادعاء جديد ولكن ليس كل الخلاف للأخلاقيات الإسلامية. ومنها أنه قد يرى الفاقة والإذلال الذاتي من القيم الأعلى في الحياة للوعاظ الصوفيين. وتأثير هذه نمت تدريجيا في جميع الأمور في العالم الإسلامي بل سيطر على النهاية. يكون ذكر واحد من الصوفية كافيا لهذا كله. وهو المحاسبي الذي لـــه تأثير حاسم على الإمام الغزالي عندما جعل التصوف جزءاً مؤكدا للأخلاق الإسلامية في كتابه إحياء علوم الدين.[1]

تقديم الفكر الأخلاقي الفارسي إلى التقليد الإسلامي سبق معرفته بالأخلاقيات

---

[1] M. Smith: An Early Mystic of Baghdad, London, 1935

اليونانية. وممثله الرئيسي هو ابن المقفع. وله دون كتاب المشهور "كليلة ودمنة" الذي يستحق أن يذكر في هذا السياق كتابان مشهوران: "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير" وإن كان في أصلها شك هما ليسا مستندتين على أي قاعدة فلسفية ولكن يستمران أن يقرأ كما كانا خطبات يونانية ويعطيان للحكام والموظفين في الحكومة والأشخاص الذين يتمنون التقدم والحياة نصيحة لكي يكونوا ناجحين. إن التلميحات الإسلامية التي احتوت في هذا الأدب في بادئ الأمر ضئيلة جداً. ولكن اتّصال هذا التقليد بالدين يؤكد بثبات. فالعاقل يفهم أنه كيف يستقبل النصيحة والأمانة والواجبات. "فعيون الأخبار" لابن قتيبة يعرف أول كتاب جمع الأخلاقيات الإسلامية والدلائل الشاملة. فهذا الكتاب جمع درجة رائعة كاملة شاملة من القرآن والحديث والمساهمات قبل الإسلام والفارسية.

قدمت الأخلاق الفلسفية التي اشتقت من اليونان في أول الأمر الدوائر المحدودة التي كرست لها بعض الناس من لدراسة الفلسفة. وبيان تطورها بين الفلسفة الإسلامية سيجيء في القسم القادم. حصلت الفلاسفة مقاما مهما في علم الأدب أيضاً. وتأثيرهم فيه غير محدود كما سبق ذكره والأخلاقيات الفلسفية التي تقدمها مسكويه تركها كلها العالم الديني الإمام الغزالي رحمه الله. لأن آراء مسكويه كانت معروفة خلال القناة الأخرى يعنى آراء مصنفي الأعمال الفارسية مثل الطوسي والدواني. ومن الناحية الأخرى كسبت الأخلاقية الصوفية تأثيرا هائلا في العالم الإسلامي الشرقي حتى في الترك بمساعدة الشعراء الفرس العظماء. وهذا

التأثير قد نال العزة والموازنة في كل العالم بالمركز الإجتماعي القوى الحاصل للصوفية وامتداد عصوبتهم العامية في كل الأصناف.

وإذا بحثنا في القرن الأخير عن الأخلاق الإسلامية يستطيع أن نرى إختلافا مرتجلا فيها. وهو ثمرة استئزاز الصوفية القوي في الدوائر الإسلامية الراشدية. وكان لـــه تأثير متواز على الفكر الأخلاقي الإسلامي لأن طريق الصوفية هو على الأخلاق الفعلية ليس الأخلاق الكسولية، هذا كله على نظر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وإن كان نمو طريق الصوفية على التدريج، فنمو المعتزلة كان على الصراحة، وإذا بحثنا في خارج الدوائر اللاهوتية نرى هذا الإتجاه نفسه على تأثير الفلاسفة الغربية في كل من التطورات الإجتماعية والسياسية الداخلية. وهم أجمعوا هذين المذهبين الأخلاق الفعلية والأخلاق الكسولية فظهر نوع آخر من هذين. فحفز هذا أكثر تطور من النظرية الأخلاقية. وممن يستحق ذكره عالم الإجتماع التركي سياكوكلپ (Ziya Gokalp) والشاعر الهندي محمد إقبال وغيره ممن يعتبر تمثيل المراحل الإنتقالية في الفكر الإسلامي الحديث.

الفصل الثالث : الأخلاقيات الفلسفية

قد قسم الفيلسوف المشهور الفخرى (Fakhry) الأخلاقيات الإسلامية إلى أربعة أقسام (١) الأخلاقيات الكتابية (Scriptural Morality) (٢) الأخلاقيات اللاهوتية (Theological Ethics) (٣) الأخلاقيات الفلسفية (Philosophical Ethics)

(٤) الأخلاقيات الدينية (Religious Ethics).[1] يفهم من هذا أن الأخلاقيات الفلسفية من أنواع الأخلاقيات الإسلامية. وإن كان الأمر كذلك من شأن الأخلاقيات أن تعرب مذاهبها في أغلب الأحيان عن عواطف الناس وعاداتهم وتقاليدهم الذائعة بلغة المثل الأعلى والغاية القصوى. وأن فيلسوف الأخلاق هو في الواقع المشرع الذي يرسم لشعبه سنن الحياة المثالية بدء من العادات الذائعة والتقاليد السائدة. وقد ذكر الفيلسوف المشهور أفلاطون في "الجمهورية": إن مذاهب الأخلاق والقانون لا تستند إلى صخر وشجر، بل إلى عادات الناس وتقاليدهم استنادها إلى أساسها الحقيقي الصحيح.

فإن الصلة الوثيقة بين تعاليم فلاسفة الأخلاق وبين العادات الأخلاقية الذائعة لا تلزم المفكرين بالبقاء في مستوى الملاحظة المشخصة والمسلمات الراهنة. بل أن الحكمة ذاتها، وهي صدى عمل الفكر في معطيات الواقع. وعزا الفلاسفة إلى الحكمة فضائل طيبة رفيعة يودّ كل إنسان بطبعه في زعمهم أن يتحلى بها ويسعد بنوالها. وقد واكب الفكر الأخلاقي في نمو المجتمعات الإنسانية الأولى وظهر بصورة عفوية بدافع الحاجة إلى التفكير في أمور الحياة اليومية. فكان فكرا عمليا خالصا في أول الأمر. ثم خطا نصف خطوة عندما ظل مرتبطا بالواقع من جهة. ومتطلعا إلى المثل الأعلى من جهة أخرى. وهذا هو عهد الحكمة كما نشاهدها لدى الفلاسفة اليونان قبل سقراط. ثم تطوّر معنى الحكمة وصار أفضل تلبية لحاجات

[1] Sayyed Hussein Nasr and Liver Leaman: History of Muslim Philosophy (Part II), London & New York, 1996 (Ethical Theories in Islam, Fakhry, Leiden, P: 191)

الفكر المنطقي ومقتضيات العقل الفلسفي.[1]

فينبغي أن يعتبر الفيلسوف الأخلاق النظرية أهم جزء في الأخلاق. ومن النافع أن تميز موقف الفيلسوف كباحث نظري في الأخلاق عن موقفه كفاعل الأخلاق الذي يستمد من وجدانه حكما أخلاقيا يتناول سلوكه وعمله فالإعتبار الأخير لا يختلف الفيلسوف عن أي فاعل أخلاق يعترف بوجود قيم معينة يعمد إلى تجسيدها في الواقع وينقلها بفعله من العالم المثالي إلى دنيا المشخص. فإن من المحال أن يتحقق فعل أخلاقي لا يصحبه شعور أخلاقي واعٍ. ننظر إلى قول فيلسوف مشهور:

"إني لا أقدر على التفكير بدون أن أفكر بأني أفكر، وأنا أعجز عن المعرفة إلا إذا عرفت إني أعرف ولذا فإن من الممتنع أن أعمل حقا من غير أن أعي فعلي، أي من غير أن أحكم عليه."

يفهم من هذا القول أن كل أفعال من الإنسان تقع بمعرفته. ولكن من الجائز أن ينفصل حكم الحاكم الأخلاقي عن الفعل الأخلاقي باعتبار لفعل تنفيذا. وذلك مثلاً عندما يحكم المرء على فعل يستطيع أن يفعله. ولكنه لا يفعله في الواقع، اوعندما يحكم على أفعال الآخرين وأعمالهم من الناحية الأخلاقية.

قد يقال أن الإنسان يعرف القيمة الأخلاقية سواء أعرب عن هذه القيمة

---

[1] الدكتور عادل العوّا: المذاهب الأخلاقية عرض ونقد، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ج١/ص:١-٤٥

بأحكامه أوبأفعاله. غير أن هذه المعرفة تتميز في الواقع عن معرفة الفيلسوف الأخلاقي باعتباره باحثا نظريا في الأخلاق. ذلك أن وضع الباحث الأخلاقي بالنسبة إلى الفاعل الأخلاقي، سواء كان هذا الفاعل حاكما أخلاقيا او منفذا، إنما يشبه موقف ناقد العلم بالاضافة إلى العالم[1] ومن هنا يمكن أن نقول إن الباحث النظري في الأخلاق او فيلسوف الأخلاق يفكر في التفكير الأخلاقي ويقف منه موقف التفكير من الدرجة الثانية. فالأخلاقي يدرس أحكام الأخلاق التي تتصل بالفعل وبالسلوك، سواء كان هذا الفعل فعله او فعل غيره من الناس، وظاهر أن زوال انتقاد المعرفة العلمية لا يؤثر تأثيراً كبيراً في حياة العلم ونموه. وكذا أن زوال الباحثين في الأخلاق إنما يؤثر تأثيرا ضعيفا في توفر الحياة الأخلاقية لدى الأفراد والجماعات بل أن الأخلاق النظرية لا تزال تحتفظ بقيمتها الحقيقية الأولى. تلك القيمة الماثلة في أن فلسفة الأخلاق الإنتقادية تساعد الإنسان كما تساعده فلسفة انتقاد المعرفة على بلوغ درجة أعمق في فهمه نفسه ومعرفته بسلوكه وبالعالم.

وكذا ينبغي أن يقع البحوث والدراسة في الأخلاقيات الفلسفية مثل ما في الأخلاقيات الإسلامية. وفي وسع البحث الأخلاقي الفلسفي يمكن الناس من أن يعوا شروط وجودهم ويدركوا بعض ثوابت التجربة الأخلاقية ويلموا بمعرفة بعض أساليب الحياة، حتى يتضح لهم فهم الأوضاع الرئيسية التي تكتنف سلوك الإنسان. وبديهي أن نظريات كل فيلسوف اخلاقي تؤلف عندما تتسق فيما بينها وتنسجم وحدة

---

[1] روجه دوفال: القيمة الأخلاقية، ١٩٥١، ص :٣

متميزة او مذهبا خاصا. وقد كثرت لذلك المذاهب الأخلاقية حتّى صار في وسعنا أن نتحدث عن وجود أنواع من الأخلاق النظرية يساوى عددها عدد أصحاب النظريات او المذاهب. فدراسة كل المذاهب مشقة جدا. فدون ذلك أن النظريات الأخلاقية لا تنفصل لدى كل فيلسوف عن مذهبه العام في الفلسفة بل إنها في الواقع جزء متمم او جزء أساسي في هذا المذهب. وليست الأخلاق الفلسفية التي نبحث عنها لائحة تضم عددا يكبر او يصغر من النصائح والأوامر والتعاليم. بل إنها في الواقع منظومة أو بناء منطقي ينطوى اولا على عقيدة نظرية نبحث في الإنسان والعالم ويظل هذا الأمر صحيحا في مجال مذاهب الأخلاق الدينية عينها. لأن تعاليم كل ديانة وقواعدها الأخلاقية لا يمكن أن تسلخ عن إطارها العقائدي ونظامها الفكري وجملتها التصويرية الأساسية.

ويرى بعض المفكرين أن النظريات والمذاهب الأخلاقية هي كالنظريات والمذاهب الفلسفية العامة حوادث اجتماعية بذاتها وإنها لا تفهم فهما صحيحا إلا إذا أضيفت إلى ظروف نشأتها وأسباب ولادتها وظهورها وعوامل نجاحها وانتشارها، او فشلها وذبولها. فالمذاهب الفكرية في هذا الرأي وليدة البيئة، وليدة عبقرية أصحابها، وهي تتبدل الأوضاع الإجتماعية والوقائع الفكرية تبدلا عميقا، وانتقل مركز المدنية من بقعة إلى بقعة، ومن أمة إلى أخرى.

تبديل الأخلاق

فإذا بحثنا في الكتب الفلسفية نرى قول الفيلسوف المشهور دوركهايم:

"إن لكل شعب أخلاقا، وهي الأخلاق التي تحددها شروط حياته وظروفه ولا يمكن استبدالها بأخلاق أخرى غيرها مهما لسمت هذه الأخلاق البديلة إلا إذا قبلنا تفكك أواصر هذا الشعب."[1] ولكن هذا ليس بصحيح كاملا. لأنه كان في شعب العربية أخلاقاً مخصوصة بهم. ولكن بعد مجيء الرسول صلعم استبدلت هذه الأخلاق بالأخلاق الإسلامية الحسنة الجيدة الجديدة. مثلاً الرجل الذي أوصى لأهله لأن يدفن في قبر تحت شجرة الكرم بحب الخمر هو أسلم وصار عدوا للخمر وشربه. وكذلك كانت التبديلات الهائلة في أهل العرب يعنى في أخلاقهم خاصة. فزعم دوركهايم باطل بالنسبة إلى الإسلام. فإذا نظرنا إلى الأخلاق من حيث البرهان على تمييز الخير عن الشر حصلنا على نظرية أخلاقية. فهذه النظرية تسعى إلى تبرير الخير والشر وتدل دائما بهذا الإعتبار على أنها تستهدف الوصول إلى نتائج معيارية. ولا يصح بسبب ذلك أن نتناول دراسة العادات الأخلاقية او دراسة الأحكام الأخلاقية عينها دراسة علمية وضعية ووصفية قاله 'لالاند' في المعجم الإنتقادي للمفردات الفلسفية الفنية.[2]

وإنما يتناول بحثنا النظريات الأخلاقية من حيث تكاملها في مذاهب فلسفية رئيسية. ولئن استطاع الباحثون في تنوع الأخلاق وتطور العادات الأخلاقية أن يصطلحوا على تحديد بدء للفكر الفلسفي في هذا الميدان. وقد يتفق أن بعض أجزاء المذهب الأخلاقي يباين بعضا او أنه لا يتسق مع سائر الأجزاء اتساقا صميما.

---

[1] دوركهايم: تقسيم الفعل الإجتماعي (الطبيعة السادسة)، ١٩٣٢، ص:٢١٦

[2] المعجم الإنتقادي للمفردات الفلسفية الفنية، الطبعة الخامسة، ١٩٤٧، (المادة الأخلاق)

ويستطيع أن نرى المذاهب الأخلاقية المختلفة في العصر القديم وفي العصر الوسيط وفي عصر النهضة والعصر الحديث. وكذلك نجد الإختلافات في التصنيف المكاني والجغرافي كأن نميز المذاهب تبعا لمكان ظهورها او محل ذيوعها وانتشارها كما وجدنا أخلاق الطبيعة وأخلاق الحياة وأخلاق العاطفة وأخلاق العقل والتجربة وغيرها. وظاهر أن كل نوع من أنواع التصانيف المذكورة مصطنع بالضرورة إلى حد كبير او صغير. فالتصنيف الزمني لا يمنع أن تظهر مذاهب متقاربة او متماثلة في وقت، او تظهر مذاهب او مفاهيم او اتجاهات مختلفة متعارضة في وقت واحدٍ او مكان واحد او في زمان تالٍ.

ويعتبر الأخلاق مع علم المدني وتدبير المنـــزل قسما في الفلسفة العملية في تبويب أقسام الفلسفة المختلفة وقد وصف في كتاب "في الأخلاق" الذي الفه 'حنين' في أطروحة جالينوس بالكلمة التالية (خاصة الوصف عن ترجمات جالينوس السريانية والعربية) يقول: تعامل جالينوس مختلف أنواع "الأخلاق" وأسبابها وإشارتها ومعالجاتها. يستعمل الغزالي نفس الكلمات[1] عندما يقول إن الأخلاق-على ما هو فرع الفلسفة- يتضمن "تعريف الخصائص الشخصية دساتير الروح الأخلاقية وطريقة الإعتدال وسيطرتها." وروى 'حديدي خليفة' نفس التعريف عن ابن صدر الدين الشرواني. وقال: "الأخلاقية علم عن المزايا وطريق اكتسابها وطريق محاذرتها. وموضوعها: التربيات الفطرية والمزايا المكتسبة والروح العقلانية بقدر

[1] الإمام الغزالي: المنقد من الضلال، ص:٩٩

ما هي متأثر بواسطتها" والأخلاق مذهب فلسفي إستأنفها الفلسفة الإفريقية في بادئ الأمر. ولكن منذ أن يصر ممثليها في الإسلام أن الأخلاق الفلسفية لا يكون مناقضة الإسلام بل يكون إما لتأييد الإسلام أو تأكيده. هذه الأفكار يمكن أن تكون متكاملة في النهاية بالتقليد الديني وتحتفظ ببعض التأثير حتى في القرون اللاحقة.

بلوغ الأفكار اليونانية إلى العرب

بلغت الفلسفية الأخلاقية اليونانية إلى العرب في عدة طرق مختلفة. الأعمال القياسية للأيام الكلاسيكية لليونان كانت تقرأ في المدارس الفلسفية العربية المتأخرة مثل "جمهورية أفلاطون" (Plato's Republic) و"طماكس" (Timacus) و"قوانين" (Laws) التي كانت تعرف كلها أصلية مع تعليقية وخلاصية. وترجم 'إسحق ب. حنين' كتاب أرسطو 'نيكوماجين اتكس' (Necomachean Ethics) الذي لـــه أحد عشر قسماً إلى العربية. وقد تُرجِّم ايضا إلى العربية كتاب Porphyry's porphyrc. واستعمل مسكويه جمهوره في الفصل الثالث والرابع والخامس من كتابه "تهذيب الأخلاق". وكذلك للعرب إلمام بالخلاصة اليونانية المشهورة لنيكوماجين أتكس.[1] وقد اقتطف – م.س. تيمور باشا من هذا الكتاب كثيرا من الأفكار وجمعها في كتابه'الأخلاق'. وترجَّمه "حرمن الألماني" إلى لغة لاتن في سنة ١٢٤٣-٤٤م.[2] وكتب الفارابي تعليقا لمقدمة "نيكوماجين اتكس" التي أشير إليها بالمؤلفين الأسبانيين

---

[1] يعرف هذه الخلاصة "خلاصة الكسافيين" (Summary of the Alexandrines)

[2] Aristotles Latinus II, Cambridge, 1955/1308

في القرن الثاني عشر.[1] وتعليق ابن رشد المتوسط الذي كتبه في سنة ١١٧٧م محفوظ في الترجمة اللاتينية بقلم حرمن الألماني في سنة ١٢٤٠م[2] وفي الترجمة العبرية (Hebrew) سنة ١٣٢١م على قلم صموئيل ب. جودة من المارسليس (Samuel.b Judah of Marseilles).[3]

وكان يقرأ كثيرا ثلاث أطروحات لجالينوس في العالم العربي وإن كانت هذه الثلاثة أقل معروفة في العالم الغربي يعني بين الأعمال اليونانية. وهي (١) في الأخلاق (فُقد أصله اليوناني ولكن بقيت ترجمته العربية) (٢) كيف يكشف الرجل ملازمه الخاصة (How a man may discover his own vices) (٣) يربح الرجال الجيدون بأعدائهم (Good men Profit by their enemies) فُقد أصله أيضاً. واستعمل الإمام الرازي هاتين الأطروحتين الأخيرتين كثيرا. وكذلك استعمل مسكويه هذه الثلاثة في أعماله العظيمة.

ويقدر الكتاب الإسلاميون اللاحقون أطروحة الكندي الأخلاقية قدرا عظيما. واستعمل مسكويه وابن سينا وغيرهما أطروحته الجزيلة المسماة باسم "الحرية من الحزن" (On freedom from grief). وأسس الكندي فلسفته الأخلاقية مثل المتحملين وجالينوس والفلاسفة اليونانيين الآخرين على ثلاثة أقسام التي كانت في تقسيم أفلاطون للروح (soul) (١) العقلي (٢) النشيطي (٣) المشهي، وعلى أربعة مزايا

---

[1] Aristoteles Latinus, II, Cambridge, 1955/1308
[2] Aristotles Latinus II, Cambridge, 1955/1308
[3] M. Stein Schneider, Die hebro, Ubersetzungen, 217

رئيسية التي كانت في تعرف أفلاطون (١) حكمة (wisdom) (٢) شجاعة (valor) (٣) اعتدال (temperance) (٤) عدالة (Justice). وبديهي أن مسكويه أسس الفصل الأول من كتابه "تهذيب الأخلاق" على معالجة الكندي من الملازم والمزايا.[1]

وفُقد أطروحة الكندي "على الطب الروحي". ولكن معالجة الرازي الرائعة نفس الموضوع متوفرة في طبعة نقدية في النص العربي. ولكن الأمر المحزون هو أن نسخة الرازي للفلسفة الأخلاقية اليونانية لم يؤثر على الإتجاه الرئيسي للأخلاق الفلسفية في الإسلام.

فأطروحة الفيلسوف يحي بن عادى المشهور باسم يعقوبي "في تهذيب الأخلاق" تمثل مغايرة من الفكر اليوناني المتأخر.

إن العمل كثير التأثير في الأخلاقية الفلسفية هو "تهذيب الأخلاق" لمسكويه. يرفض مسكويه ثقافة الشعراء الجاهليين، ولكن ليس غير متعاطف إلى التقليد الفارسي إلى الأخلاق. ويصرّ في كثير من الفقرات المميزة على اتفاقية الأخلاق اليونانية بالعقائد الأساسية للإسلام.

تأثير الأخلاق فى الأدب

لاحظ دي بور (De Boer) تأثير الأخلاق الفلسفية على الأدب وأفرد مثالا تعليميا كتاب الماوردى "أدب الدنيا والدين". وفي هذا الكتاب نرى نعش مواد

---

[1] (1) H.A.R. Gibb (chief editor): The Encyclopedia of Islam (V-1), Lei den, E.J. Bril, Netherlands, p.325-329.

الأخلاق التقليدية بإدراج مواد الأخلاقية الجديدة. واعتبر الإمام الغزالي أطروحة مسكويه كأنه من الواضح وكمعقول في نفسه ومدعومة بالبرهان ومتفقة بأن محتوياتها لم تناقض الكتب والسنة النبوية. ولذلك الأفكار الفلسفية يونانية الأصل التي ناقشها مسكويه وواضحها هي أصبحت جزءاً للنظرية التربية عموم المقبولة التي توجد في كتاب الإمام الغزالي "إحياء علوم الدين". فالقسم الذي يبيّن عن الإنضباط الذاتي مستند على تهذيب الأخلاق لمسكويه. وكذلك بديهي جدا أن تأثير مسكويه موجود في أعمال الامام الغزالي الأخرى. ونظريته الأخلاقية كانت بهذه الطريقة متعلقة بالتقليد الديني كاملة.[1]

فالسؤال الذي عن تأثير تأليفات الإمام الغزالي الناجحة على الأدب الأخلاقي المتأخر هو باق وما يزال ينتظر إلى جواب وتحقيق. والدلائل الأدبية تقترح كافيا بأن تأثيره كان غير مباشرة وكذلك الإتجاهات المتنوعة للفكر الأخلاقي واصلت الإيجاد جنبا إلى جنب. وتأثير أعمال مسكويه دائم وظاهر بصورة رئيسية في الأدب الفارسي. فالسلفي الشيعي ابن سينا وناصر الدين[2] الطوسي هما يتبعان لمسكويه مباشرة. وبعد القرنين اختار الدواني مصنف كتاب "أخلاق جلالي" مادته الأساسية من أعمال ناصر الدين الطوسي ولكن أنه أسند إلى الإمام الغزالي كسلطة إسلامية إضافية (An additional Islamic authority).

---

[1] (1) A.J. Wensinck: *La Pensee De Gazzali*, Paris, 1946. (2) H. Ritte: (Al-Gazzali, das Elixier der Gluckseligkeit), Jena, 1925.

[2] يقر ناصر الدين الطوسي هذا الامر في كتابه "اخلاق ناصري" (٦٣٣/١٢٣٣)

آراء العلماء عن الأخلاق

قال الإمام الغزالي: "الأخلاق هي عبارة عن هيئة راسخة في النفس، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية."[1]

وقال أبو عثمان الجاحظ: إن الخلق هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاليه بلا روية ولا اختيار. والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا. وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والإجتهاد كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلم وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة.[2]

وقال الإمام الماوردي: هي غرائز كامنة تظهر بالإختيار وتقهر بالإضطرار.[3]

قال ابن القيم بعد إيراد حديثين: فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة وما هو مكتسب[4] فالحديثان هما:

(١) عن أم أبان بنت الوازع بن زارع عن جدها زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنتقبل يد النبي صلعم ورجله قال وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس توبيه. ثم أتي النبي صمعم فقال

---

[1] (١) الامام الغزالي: احياء علوم الدين (٥٣/٣). (٢) الجرجاني: التعريفات، ص:١٠٤

[2] تهذيب الأخلاق، ص:١٢

[3] تسهيل النظر وتعجيل الظفر، ص: ٥

[4] مدارج السالكين، (٣/٣١٥)

لـــه (إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة) قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما ام الله جبلني عليهما؟ قال (بل الله جبلك عليهما) قال الحمد لله الذي جبلني على خلتين يجبهما الله ورسوله.[1]

(٢) عن أبى سعيد الخدري: إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى فقد ما عنده فقال: (ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله. ومن يتصبر يصبره الله. وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر.[2]

يقول ابن القيم "فان قلت هل يمكن أن يقع الخلق كسبيا او هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت يمكن أن يقع كسبيا بالتخلق والتكلف حتى يصير لـــه سجية وملكة.[3]

وقال الفيروز آبادي "واعلم أن الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين.[4]

وقال ابن عباس في تفسير (إنك لعلى خلق عظيم) أي إنك على دين عظيم، وهو الإسلام.[5] سيأتي في الباب الثالث آراء الإمام الدهلوي.

---

[1] اخرجه ابو داود في الأدب-باب في قبلة الرجل (٥٢٢٥) واللفظ لـــه والبزار (٢٧٤٦) والطبراني (٥٣١٣) والبيهقي في الكبرى (١٠٢/٧٧) واصله في مسلم في الإبهان (١٦) من حديث ابن سعيد الخدري

[2] اخرجه البخاري في الزكاة. باب: الاستعناف عن المسألة (١٤٦٩) واللفظ لـــه ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)

[3] مدارج السالكين (٣١٥/٣)

[4] بصائر ذوي التمييز (٥٦٨/٢)

[5] اخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣٩/٢)

الباب الثاني

الشاه ولي الله الدهلوي: حياته وأفكاره

الفصل الأول : حياته

الفصل الثاني : أفكاره

الفصل الثالث : مصادر أفكاره

الشاه ولي الله الدهلوي: حياته وأفكاره

الفصل الأول : حياته

الهند بلد توجد فيه أجناس متعددة من ثقافات مختلفة. ولم تزل الهند طائرا ذهبيا طمعت فيها الأجانب من البداية. أما قصة مجيئ المسلمين إلى هذه الأرض الخصبة وتزايدهم عددا وأثرا خلال العصور والأزمان بطريق المتابعة للعرب التجار. لأن الصلات بين العرب والهند تضرب جذورها في سحيق الزمان, فمنذ فجر التاريخ كان البحارة العرب يمخرون بحيرة العرب لنقل السلع التجارية بين الهند والبلدان العربية. وبمرور الزمن قد ازدادت وازدهرت هذه الروابط التجارية وأضيف إليها اتجاهات جديدة بعد بزوع الإسلام في داخل الجزيرة العربية.

بعد أن وطد المسلمون أقدامهم في ربوع الهند عكفوا علي دراسة اللغات المحلية تمهيدا لنشر التعاليم الإسلامية في أنحاء البلاد وفي نفس الوقت جذبوا اهتمام المواطنين إلى اللغة العربية باعتبارها لغة دينية لأهل الإسلام ومن جزاء ذلك لم يمض روح من الزمن حتي تمكن عددا كبيرا من الهنود من اللغة العربية وأساليبها وجعلوا يؤلفون الكتب ويقرضون الأبيات في هذه اللغة المقدسة. ومنهم الشاه ولي الله الدهلوي الذي له مكانة مرموقة بينهم

ولد الإمام الدهلوي صباح يوم الأربعاء في ٤ شوال ١١١٤ هـ/ ٢١

فبراير ١٧٠٣م في بيت أخواله بقرية "فلت" (Fulth) في مديرية مظفر نكر.[1] أبوه هو الشيخ عبد الرحيم. وله في ذلك الوقت ستون سنا. إنه كان عالما ماهرا في علوم مختلفة. وأمه هي فخر النساء. كانت تمتاز ببراعة فائقة في العلوم الدينية. قلما يتيسر مثلها في النساء. مكانة الأم في تربية أولادها عظيم جدا. ولهذه الأم العالمة مساهمة كبيرة في تربية الإمام الدهلوي. فكذلك رباه والده تربية صوفية على طريقة القادرية والجشتية والنقشبندية[2]. ثم أكمل تربيته الروحية تحت رعاية الخواجه خورد ابن الخواجه باقي بالله شيخ مجدد الألف الثاني.

كان أسلافه مهاجرين من بلاد العرب إلى إيران لأسباب ليست معروفة. وبعد ذلك عندما سبب احتلال التاتار لإرهاب واسع وتدمير منتشر في العراق وإيران سافر أسلاف الدهلوي إلى الهند واستوطنوا في قرية "رهتاك" (Rohtak). كان جده جنديا شجاعا في جيش 'مغول' وحبيبا عميقا للقرآن. وبعد أن استشهد والد عبدالرحيم تولى تعليم عبد الرحيم وتربيته أخوه الكبير الشيخ أبو الرضا محمد. وعبد الرحيم كان تلميذا للعالم العظيم والصوفي زاهد الهروي[3]. فقرأ عليه وعلى غيره من الأساتذة المشهورين العلوم العربية والإسلامية ودروس التصوف والسلوك. وصقل ما اكتسبه من أساتذته من علوم وفنون بذكائه وفطنته وجودة ذهنه

---

[1] أنفاس العارفين للشاه ولي الله الدهلوي ص. ٤٠٣ – ٤٠٤.

[2] يعنى تعلم الشاه ولي الله معظم العلوم من والده. وأساتذته ماعدا والده الكريم قليلون جدا مثل الشيخ محمد قاضل السندي الذي قرأ عليه الدهلوي نص القرآن الكريم والشيخ محمد أفضل السيالكوتي والشيخ ابي طاهر المدني فقد أخذ الدهلوي عنهما دروس الحديث وغيره

[3] وفي رواية مير زاهد وهو استاذ شهير منطقي متكلم.

وعمله المتواصل. فصار عبد الرحيم مشهورا بمعرفته العميقة وبراعته في العلوم الشرعية. ولذلك كان منح له الوظيفة في الحكومة لمراجعة الفتاوى العالمكيرية التي تولاها الشيخ عبد الرحيم متبعا أمر أمه. إنه كان مشهورا أيضا بالمدرسة الرحيمية في دلهي التي هي مقدم دار العلوم الديوبند الحالية. كان له شغف في الروحانية ولكن لم يهمل السمات العملية للحياة. نشأ الشاه ولي الله في بيت ورعاية هذا الأب الديني والمعلم المشهور وسما إلى المستويات العالية .

أدخله أبوه في الكتاب في الخامسة من عمره. وبعد سنتين تعلم القراءة والكتابة. بل فرغ في أواخر هذه السنة من حفظ القرآن الكريم. وبدأ قراءة الكتب الفارسية والكتب الإبتدائية المختصرة في العربية. ولما كان في السنة الرابعة عشرة من عمره تزوج بابنة خاله. وحصل الفراغ من الكتب الدرسية المتداولة في الهند في مختلف العلوم والفنون في هذه السنة نفسها. وحصل من والده إجازة التدريس والتعليم وبدأ التدريس في مدرسة أبيه المشهورة في ذلك الزمان.

فلما بلغ السابعة عشر من عمره أصيب والده بالمرض. وفي هذا المرض وافاه الأجل. فأجازه والده قبل وفاته بأخذ البيعة وأذن له بالتوجيه والإرشاد. فقال:

"بعد أن توفي الوالد اشتغلت بتدريس الكتب الدينية والعقلية لمدة تقارب اثنتي عشرة سنة فتضلعت في العلوم بأنواعها. وكلما قمت المراقبة الروحية والتأمل لدى قبر الوالد انحللت مسائل التوحيد وفتحت أبواب السلوك وظفرت بالنصيب الوافر من المعرفة وأدحمت العلوم الوجدانية في ذهني. وبعد دراسة

المذاهب الأربعة وكتبها الأصولية والأحاديث التي تستدل عليها هذه المذاهب عرفت بنور البصيرة ان الطريق هو طريق الفقهاء المحدثين".[1]

فلما كان في الثلاثين من عمره رحل إلى الحرمين الشريفين سنة ١١٤٣ هـ/١٧٣٠ م، وأدّى فريضة الحج في تلك السنة ومرة أخرى في السنة التالية لها. فإنه أقام في الحجاز نحو عامين. فحصل له فرصة واسعة لتلمذه لكثير من العلماء الماهرين في الحديث خاصة والعلوم الأخرى عامة. فتلمّذ على الشيخ أبي طاهر المدني[2]. وسمع منه صحيح البخاري وقرأ عليه من الكتب الصحاح الستة أطرافا والموطأ والمسند للدارمى وكتاب الآثار للإمام محمد وتناول منه إجازة بقية الكتب وتلمذ أيضا على الشيخ وفد الله، وأيضا على الشيخ تاج الدين القلعى الحنفي الذي كان مفتيا بمكة المكرة. وكان متبحرا في علوم الحديث والتفسير والفقه فسمع منه أيضا صحيح البخاري وسائر صحاح الستة والموطأ للإمام مالك والمسند للدارمي وكتاب الآثار وغيرها. وأعطاه الشيخ إجازة رواية الحديث وكتبها بقلمه على ورقة ولم يكتف على إجازة شفوية فقط. يدل هذا على ورعه ودقة نظره. كذلك درس كتابا واحدا من مختلف العلماء ليحصل مختلف البيان ومختلف الأسانيد. هذا أيضا يدل على شوقه إلى حصول العلوم.

---

[1] الشاه ولي الله الدهلوي: انفا س العارفين، دلهي، ص: ٤٠٤ – ٤٠٦.

[2] كان أبو طاهر يقول عن الشاه ولي الله :" إنه (الشاه) كان يسند عنى اللفظ وكنت أصح منه المعنى أو كلمة تشبه ذلك" قال الشاه ولي الله عن أبي طاهر المدني "وهو عمدة أبي عبد العزيز من بين مشايخه وأكثرهم له نفعا" (اليانع – الجاني).

وبعد سنتين عاد من الحرمين الشريفين في رجب ١١٤٥هـ / يونيو ١٧٣٢م. واستأنف عملية التدريس في المدرسة الرحيمية. وظل يتبع تدريس الحديث الشريف زمنا طويلا بأسلوب يتسم بالروعة والعظمة. وأنه اشتمل في تدريس الطلاب بكل جهد وشغف حتى لا يعطي للأعمال الأخرى مثل الوعظ والإفتاء وفصل الخصومات إلا وقتا يسيرا. وفي ثلاثين سنة من حياته الأخيرة أوقف عملية التدريس والإفادة العامة تدريجا. وهو يربي الطلاب تربية روحية ويؤدبهم بآداب السلوك والطريقة. وكان شغله الشاغل وتركيزه الكامل في هذه الفترة هو صناعة الرحال وتكوين الشخصيات.[1] فازداد عدد الطلاب الذين يجيئون إليه بعد عودته من الحرمين الشريفين زيادة ملحوظة. وهذه الحقيقة مما يدعو إلى الإعجاب ويثير الدهشة. يعرف مكانة الدهلوي بكثرة تلاميذه وغزارتهم العلمية وقدرتهم على التصنيف والتأليف وبراعتهم في الدرس والإفادة كما يعرف بعض الأشجار بثمارها.

ذكرنا من قبل عن زواجه الأول لما كان في الرابعة عشر من عمره مع "أمة الرحيم" ابنة خاله الشيخ عبد الله الصديقى الفلتي. وأنجبت له ابنا يسمى بمحمد. وبعد وفاة هذه الزوجة الأولى تم زواج الدهلوي بكريمة السيد ثناء الله السوني بتي المسماة "السيدة أرادت". وأنجبت له أبناءه الأربعة المعروفين بالشاه عبد العزيز

[1] Prof. Abdul Rahim Kidwai: Shah Waliullah Dehlavi-An Introduction To His Illustrious Personality And Achievements (Translation of Prof. Mohammed Yasin Mazhar Siddiqui's Urdu book), Shah Waliullah Dehlavi Research Cell, Institute Of Islamic Studies, Aligarh Muslim University, Aligarh, 2001, p. 14,15

الدهلوي والشاه رفيع الدين عبد الوهاب والشاه عبد القادر الدهلوي والشـــاه عبـــد الغني وبنتا واحدة.

قال ابنه عبد العزيز الدهلوي عن وفاة والده الشاه ولي الله الدهلوي:

"إن الوالد الماجد لم يكن يعتل إلا قليلا لكنه أصيب بمرض فـــي بدايـــة ذي الحجة سنة ١١٧٥هـــ / أواخر يونيو ١٧٦٢م فاشتد مرضه، وكانت بدايته في قرية "بدهانه" من مديرية مظفربور. فلما طال المرض جيئ به إلى دهلي في التاسع من ذي الحجة سنة ١١٧٥هـــ / يوم الأول من يوليو ١٧٦٢م حيث نزل في بيت واحد من مريده المسمى بابا فضل الله الكشميري في داخل أسوار جامع روشن الدولـــة، وقد بذل الأطباء جهدهم في مداواته ولكن الداء ظل يشتد وأخيـــرا حـــان الأجـــل المحتوم ولفظ نفسه الأخير وقت الظهيرة ٢٩ محرم ١١٧٦هـــــ/ ٢٠ أغســـطس ١٧٦٢م".[1] فصح قول الله جل وأعز "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ". ولكنّه يحيى بيننا كما قال الشاعر:

والجاهلون فماتوا قبل موتهم والعالمون وإن ماتوا فأحياء

فإذا بحثنا عن الأحوال السياسية في ذلك الزمان وجدنا ذلك الزمن ضعفت فيه قوة ملوك المغول في الهند في القرن الثامن عشر الميلادي وانكسفت شموس أهل الإسلام في هذه المنطقة. بل سماه الناس باسم "عظيم الدين" معدودا لسنة ولادته ولقبوه بـــ"ولي الله" و"قطب الدين" تيمنا ببركة الإسم. فصار بقضاء الله "ولي

[1] وفي نفس اليوم شيع جثمانه ودفن بالقرب من قبر والده في مقبرة "مهنديان" دهلي.

الله" و"قطب الدين" في الحقيقة داخل الهند وخارجها.

أعماله

وإذا تهيأنا للفحص عن أعماله وجدناها تدور على القرآن والحديث والكلام والفلسفة الأخلاقية والسياسية الإجتماعية والعلوم الروحية. كتب عن الدراسات الإسلامية في نطاق واسع. وفي ضمنها التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والعقائد والكلام والفلسفة والتصوف والتاريخ والسيرة الذاتية والشعر العربي والنحو. وأنه كتب كذلك في مناطق علم الإجتماع والسياسة والعلوم النفسية والفلسفة الأخلاقية. ومن هذه الأعمال نريد ان نفرد الكتب الفلسفية.

(١) **حجة الله البالغة:** هو كتاب عربي، و رائع التاليف ويشكل شرحا هاما جدا في العالم الإسلامي. سيأتي التفصيل عن هذا العمل في الفصل الأخير. نشر هذا الكتاب أولا في بريلي (الهند) في سنة ١٢٨٦هـ/ ١٧٦٧م. قد ظهرت عدد من الترجمات الأردية لهذا الكتاب. وترجم إلى الإنجليزية أيضا مؤخرا تحت عنوان "الحجة القاطعة من الله" (The Conclusive Argument from God) بقلم مارسا هرمنسن (Marcia Hermansen) . وقد نشر ترجمة الجزء الأول فقط من قبل بايدي إي. جي. برل (E.J.Bril) في لندن في ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. أخيرا وجدنا طبعات عربية مختلفة جيدة الطبع التي نشرت من البلاد المختلفة. وقام بتجديده كثير من العلماء.

(٢) **البدور البازغة:** هو أيضا كتاب عربي، ونشر من حيدآباد، في سنة

١٣٩١هـ/ ١٩٧٠م، هو مساهمته الثانية المهمة في تفسير الفلسفة والعقنية للإسلام بعد حجة الله البالغة. ترجم هذا الكتاب أيضا إلى الإنجليزية بيد ج.م.س.بيجن (J.M.S.Baijon).

(٣) **الخير الكثير:** هو أيضا كتاب عربي، ونشر من بجنور، الهند، في سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٤م، وهذا عمل ملخص الذي حاول فيه المؤلف توضيح أساسيات الإيمان التي تجمع حججا عقلانية وتقليدية.

(٤) **مكتوبي مدم:** وهو كتاب فارسي، ونشر من لاهور، في سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٥م. هذه رسالة طويلة خاطب بها الشاه ولي الله إلى إسمعيل بن عبد الرحمن الرومي يبحث عن الأمور الغيبية لمفهوم الوجود. يوضح العمل موقف المؤلف على مشاكل الوجود التي تشبه لنظريات الشيخ ابن عربي والشيخ أحمد السرهندي. تضمنت هذه الرسالة التفهيمات الإلاهية.

(٥) **العقيدة الحسنة:** وهو كتاب عربي، ونشر من لكهنو، في سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م. وله ٧٢ صفحة. هذا تقديم بسيط عقلي في أساسيات الإعتقاد في الإسلام. قد ترجم إلى اللغة الأردية.

(٦) **المقدمة السنية في انتظار الفرق السنية:** وهو كتاب فارسي، ونشر من دلهي، وبهذا العمل يحاول الدهلوي عقلا لتعريض المذاهب السنية بالمقارنة بمذاهب الشيعية. هذا في الحقيقة مقدمته للترجمة الفارسية لأطروحية للشيخ أحمد السرهندي التي تسمي باسم "رادي رواني".

قد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه ليس عندنا شهادة تدل على الترتيب الزمني لمؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي دلالة واضحة. ولذلك لا أريد أن أفتشه. ولكن أريد أن أقول أعماله التي وصلتها ووجدتها حسب ترتيب حروف المعجم. وفيه يضم الكتب والرسائل وكذلك مؤلفاته الصغيرة والكبيرة والفارسية والعربية.

١. الأربعون (بالعربية)
٢. الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد (بالعربية)
٣. إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية)
٤. أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم (قصيدته بالعربية)
٥. ألطاف القدس (بالفارسية)
٦. الإمداد في مآثر الأجداد (بالفارسية)
٧. الإنتباه في سلاسل أولياء الله (بالفارسية)
٨. انسان الغين في مشايخ الحرمين (بالفارسية)
٩. الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف (بالعربية)
١٠. أنفاس العارفين (بالفارسية ، سيرته الذاتية)
١١. البدور البازغة (بالعربية)
١٢. بوارق الولاية (بالفارسية)
١٣. تأويل الأحاديث (بالعربية)
١٤. تحفة المؤحدين (بالفارسية)
١٥. تراجم أبواب البخاري (بالعربية)
١٦. التفهيمات الإلهية (بالعربية والفارسية)
١٧. الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف (بالفارسية)

١٨. حجة الله البالغة (بالعربية)

١٩. حسن العقيدة (بالعربية)

٢٠. الخير الكثير (بالعربية)

٢١. الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين (بالعربية)

٢٢. ديوان الشعر العربي (بالعربية)

٢٣. رسالة في الرد على رسالة الشيخ خواجه خورد عبد الله بن عبد الباقي

٢٤. رسالة في الحكمة (بالفارسية)

٢٥. الزهراوين

٢٦. سطعات (بالفارسية)

٢٧. سرور المحزون (بالفارسية)

٢٨. شرح تراجم أبواب صحيح البخاري (بالعربية)

٢٩. شفاء القلوب (بالفارسية)

٣٠. شوارق المعرفة (بالفارسية)

٣١. العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية (بالفارسية)

٣٢. عقد الجيد في أحكام الإجتهاد والتقليد (بالعربية)

٣٣. فتح الرحمن (بالفارسية)

٣٤. فتح الخبير (بالعربية)

٣٥. فتح الودود لمعرفة الجنود (بالعربية)

٣٦. الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين صلعم (بالعربية)

٣٧. الفوز الكبير في أصول التفسير (بالفارسية)

٣٨. فيوض الحرمين (بالعربية)

٣٩. قرة العينين في تفصيل الشيخين (بالفارسية)

٤٠. القول الجميل في بيان سواء السبيل (بالعربية)

٤١. كشف العين عن شرح الرباعيتين (بالفارسية)

٤٢. لمعات (بالفارسية)

٤٣. المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة (بالفارسية)

٤٤. المقدمة السنية في الإنتصار للفرقة السنية (بالعربية)

٤٥. المقدمة في قوانين الترجمة (بالفارسية)

٤٦. المسوى من أحاديث الموطأ (بالعربية)

٤٧. المصفي (بالفارسية)

٤٨. المكتوب المدني (بالعربية)

٤٩. مجموعة رسائل في مناقب الإمام البخاري وفضل ابن تيمية (بالعربية والفارسية)

٥٠. النبذة الإبريزية في اللطيفة العزيزية (بالفارسية)

٥١. النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر (بالعربية)

٥٢. همعات (بالفارسية)

٥٣. هوامع شرح حرب البحر (بالفارسية)

هذه هي التي علمتها ووجدتها. فيقال إن أعمالها يكون عددها بين ثمانين وتسعين وفي قول آخر يكون عددها بين تسعين وألف. وقد ورد ذكر بعض مؤلفاته في ثنايا الإجازات والمقالات الصوفية والكتب والرسائل الأخرى.

الفصل الثاني : أفكاره

يقول الأستاذ البروفسر محمد ياسين مظهر الصديقي في كتابه "الإمام الدهلوي عرض موجز لحياته وفكره" إن من يدرس شخصية الشاه ولي الله الدهلوي يصادفه تياران متميزان في فكره وفلسفته: أولها يقدمه باعتباره شارحا ومفسرا والثاني بصفته مفكرا وفلسفيا. وهذان التياران يجريان جنبا إلى جنب أحيانا حيث يجري التيار الفكري تحت التيار التفسيري، وأحيانا آخرى يجري كل منهما على الإستقلال – ولكنهما في هذه الصورة أيضا – لا ينفيان بعضهما بعضا على اختلاف مجراهما. بل على العكس يؤيد كل منهما على الآخر. وأن المعرفة بهذه التيارات أو المستويات الفكرية في كتاباته ليست بأمر عسير، وإنما تتعين تلقائيا بتعين الموضوع والمادة فكلها يتعرض فكره لمظاهر الدين الخارجية ومبادئ التصوف الظاهرة أولمسائل العلوم والفنون المسلم بها يغلب التيار التفسيري والبياني وكلها يخوض الأغوار الباطنية لهذه الأمور ويمخض أسرارها وحكمها يستحوض على أسلوبه التيار الفكري والفلسفي". هذا هو رأي ياسين مظهر الصديقي ولكن نحن نفهم أنه تفكر عن معظم الأمور يعني أن أفكاره متصلة بسائر الأمور الدنيوية والدينية والفلسفية أريد أن أبحث أفكاره بالقسبة إلى اثنين. الأول الأفكار الإجتماعية والإقتصادية والثاني الأفكار السياسية. هلا ننظر إلى كل واحد منهما.

(١) الأفكار الإجتماعية والإقتصادية

قد حاول الشاه ولي الله محاولة جدية تامة لاكتشاف العلاقة بين النظام الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية. وللروحانية سمتان على قوله (١) علالقة الرجل الشخصية لله (٢) علاقة الإنسان للكائنات. لا يكون الرجل روحيا بالكامل إلا أن ينقاذ نفسه من العزلة من المجتمع. وليس هذا إلا ليبدي روحانية الشخص في المنصب الإجتماعي. ولذلك يتعامل الإسلام مع الفرد كفرد نادرا. ويتصور الإسلام الإنسان دائما كعضو من عائلة أو جالية. هكذا إنجاز العدالة الإجتماعية شرط لتطوير الفرد. كيف يمكن أن تصاغ هذه المثالية للعدالة وتدرك هذا الذي هو سؤال أرفعه شاه ولي الله في تفصيل عظيم في عمله المشهور حجة الله البالغة.

"العدالة" هي الميزة الضرورية للتطوير المنسجم للجنس البشري. تكون توضيحاتها عديدة ولكنها هي الخيط الذهبي الواحد الذى يمر إلى شبكة الأنماط المتنوعة للحياة الإنسانية. وعندما تظهر العدالة في اللباس والأساليب والأعراف تمر وتذهب باسم "الأدب". وتدعى "إقتصادية" إن كانت في الأمور التى تتعلق بالدخل والإنفاق وتسمى "سياسية" إن كانت في شؤون المقياس. وقال الدهلوي:

" العدالة هي ملكة في النفس تصدر عنها الافعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة وتكون النفس كالمجبول على تلك الافاعيل .والسر في ذالك أن الملائكة والنفوس المجردة عن العلائق الجسمانية ينطبع فيها ما أراد الله في خلق العالم من إصلاح النظام ونحوه فتنقلب مرضياتها إلى ما يناسب ذالك النظام فهذه

طبيعة الروح المجردة ".[1]

يبحث الشاه ولي الله تحت عنوان "الإرتفاقات"[2] مشاكل العلاقات الإنسانية. يبدأ بقوله عن الحقيقة يعني بأن للرجل حاجات غير معدودة التى تحثه للتنفيذ. يؤدى إشباع الحاجات البشرية إلى إبتكار مجتمع وأعرافه. فالحاجات تتضمن إعتماد الأفراد أيضا ولما اجتمع الناس للأمن والسلامة الجماعية تشكلت الحكومة. ولما جاؤوا إلى اتصال واحد بالآخر أسست الإقتصادية لرضاء حاجاتهم المادية. إن النوعية الأساسية لنظام صوتي سواء كان سياسيا أو إقتصاديا أو إجتماعيا هي العلاقة المتوازنة بين مجموعة الأعضاء المختلفين لزمرة إجتماعية. هذه العلاقة المتوازنة بدون شك إنعكاس للسلام الباطن وللعلاقة الصحيحة بالخالق. ومن الناحية الأخرى النظام الإجتماعي نفسه يبعث على السلام والعلاقة.

يبحث الدهلوي عن بعض السمات الأساسية لنظام إجتماعي كعملية دينآمكية. وإنه يبدأ باللغة ويشير إلى أن اللغة ليست عربة التعبير فقط لكن هي أمر مهم لتطور الثقافة والحضارة أيضا،[3] ثم يجيئ الزراعة التي تزود غذاءا للناس. يتعلم الرجل فن الري من هذه العملية. ثم يدجن الحيوانات أيضا ويستفيد منها في المائة والواحد طرقا كثيرة . ثم بنيت البيوت لكي تحمى الجنس البشري ضد عنف

---

[1] الامام الدهلوي: حجة الله البالغة ، ص :١/ ٥٤.

[2] ترجم مولانا عبيد الله السندي هذا القول ب Social Institutions في كتابه الأردي "الشاه ولي الله اور انكي سياسي تحريك". سند ساكر الحادمي، لاهور ١٩٥٢ ص ٤٣.

[3] الامام الدهلوي: حجة الله البالغة ، ص. ٣٨/١.

الطقس والفصول.[1] يعتمد كل التطورات الأخرى على تأسيس الدولـــة. والجماعـــة الجاهلية هي جماعة تعمل الجناح بقوة قسرية لممارسة مراقبة صحيحة.

الدولة وفقا على رأيه هي يجب أن لا تحدد مجال نشاطاته إلى أمن الأفراد وسلامتهم فقط ولكن يجب أن يبتكر لجنة مالية للسعادة وتقدم المجتمع جميعا. ولذا هي في ضمن وظائف الدولة لاستئصال كل أنواع الشـــرور الإجتماعيـــة – مثـــل القمار(gambling) والزنا والربا والرشوة وغيرها. ويجب على التجار أن تمـــارس مراقبة حذرة للضمان بأنهم لا ينغمسون في سوء التصرف. الدولة يجب أن تـــرى أيضا بأن طاقات الناس تجعل للصب في قنوات مربحة على سبيل المثـــال بإبقـــاء التوزيع الصحيح للناس في الوظائف المختلفة. يشير الدهلوي " لما لم يوزع قـــوس الوظائف بإنصاف بين الأقسام المختلفة من المجتمع تستلم ثقافته نكسة، مثلا إذا أخذ أغلب الناس التجارة ستهمل الزراعة بالضرورة. وهكذا إذا سجل معظم السكان في الجيش يعانى الناس من المشاق العظيمة, وكذلك سيكون هناك بضعة يسيرة فقـــط لإعتناء الزراعة والتجارة فالنظام الإجتماعي سيزعج كاملا ".

يعتقد الشاه ولي الله الدهلوي بأن الأمر المهم في ضمن الدولة بعد وظـــائف الجيش والشرطة هو الزراعة التى تجهز إلى الناس ضرورات الحياة التي عليهـــا إعتماد الناس للوجود. يجب أن يطور الدولة طرق الزراعة.[2] وكل بوصـــة مـــن

---

[1] المصدر السابق: ص. ٤٣ - ٤٤.

[2] المصدر السابق: ص: ٤٠ – ٤٧

الأرض يجب أن يحرث بشكل صحيح، ويجب أن يكون هنـــاك مخطـــط لتعاقـــب المحاصيل. ودون ذلك ينبغي أن تتبنى الدولة لجنة مالية لتشجيع التجارة والصناعة. وهكذا على نظر ولي الله الدهلوي ترف المجتمع إذا أخذ جميعا يعتمد على تنوعـــه – البديهية التي لا تمكن أن يؤكد في أحوال كثيرة. وهذا التنوع يجـــب أن ينجـــز بتثبيت الناس على المهن المختلفة موافقا على كفاءاتهم. يمكن أن يفتح الإمكانيـــات غير المحدودة المستترة في الرجال إذاهم يســـمحون لإلتمـــاس الوظـــائف طبقـــا لنزعاتهم الخاصة للعقل.

يعتقد الشاه ولي الله الدهلوي بأنه يمكن للنظام الإقتصادي الصحيح المستند على العدالة الإجتماعية أن يساهم في سعادة المجتمع. وعنـــدما تضـــعف الدولـــة لتطوير أو احتفاظ مثل هذا النظام فيصبح هبوطها أمرا حتميـــا. يخـــتم الـــدهلوي مشاوراته عن هذه المسالة بما وجد في أوقاته هو كالتالي "وغالب ســـبب خـــراب البلدان في هذا الزمان شيئان، أحدهما تضييقهم على بيت المال بأن يعتادوا التكسب بالأخذ منه على أنهم من الغزاة أو من العلماء الذين لهم حق فيه أم من الذين جرت عادة الملوك بصلتهم كالزهاد والشعراء أو بوجه من وجوه تقدي. ويكـــون العمـــدة عندهم هو التكسب دون القيام بالمصلحة فيدخل قوم على قوم فينغصـــون علـــيهم ويصيرون كلا على المدينة. والثاني ضرب الضرائب[1] الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة والتشديد عليهم حتى يفضى إلى إجحاف المطاوعين واستئصالهم وإلـــى

---

[1] اي الخراجات

منع أولي بأس شديد وبغيهم. وإنما تصلح المدينة بالحباية اليسيرة وإقامة الحفظة بقدر الضرورة فليتنبه أهل الزمان لهذه النكتة والله أعلم".[1]

فوصل الدهلوي إلي أن العامل الرئيسي الذي هو مسؤول لهبوط الثقافة الإسلامية هو ترك العديد من الناس وظائفهم الخاصة وأصبحوا طفيليات للحكومة. هم عبأ عظيم على الخزنة العامة للحكومة. وفي هذا الصدد يشير الدهلوي إلي وهم عظيم الذي شاع بين المسلمين. وهو أن معظم المسلمين يعتقدون بأن الفقر والفاقة محبوبة لله عز وجل. ولذلك لا يحاول المسلم الصحيح أن يصبح غنيا. ومثل هذا النظر هو نظر خاطئ. أن العيشة البسيطة العادية التي تجيئ من القناعة الذاتية مختلفة أساسا عن الفاقة المنحطة إلى إخضاع الضعفاء في أغلب الأحيان. هذا الذي دعاه الشاه ولي الله الدهلوي بـ"المجاعة المجبرة لبعض الأصناف". وهو يقول "هو ضارّ جداً لرفاهية المجتمع. هذه ليست مزية ولكن هي جريمة. ولا يمنح الإسلام أي رخصة بأي صنف لإرغام الآخرين أن تبقوا حطابين للحشب وساحبين للماء. يهدف هذا إنجاز العدالة الإجتماعية. هذا محتمل حينما صار المجتمع خاليا من الصراع الطبقي وكل شخص مجهز بفرصة لتطوير سلطاته المستترة وسعته وتقوية فرديته مع الإشتراك المجاني والنشاطة في منافع بيئته المادية والثقافية".[2] ويقول بعد ذلك: "الإسلام يُعلّمنا بأن هذه الفردية المركزية القوية التي حادت وصلبت بالتجربة النشيطة للحياة يجب أن لا تصبح مهووسة بالتفخيم الذاتي. ويجب

---

[1] المصدر السابق: ص. ٤٤

[2] للبحث الواسع إنظر باب "اقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم" في حجة الله البالغة، ١٠٤-١٠٩

بالأحرى أن يكون مكرسا لخدمة الله وللمصالح البشرية خـــلال هـــذا, لا يوصـــى الإسلام أتباعه لتقديم أنفسهم لتذمر نظام إجتماعي مستبد. هي العدالة الإجتماعيـــة التي مدحها الرسول صلعم بدلا من الفاقة. العدالة ليست تحمى فردا ضـــد موقـــف التكبر والغرور فقط بل تتطور في الإنسان قوة لرفض الإغراءات".

ومن هنا يمكن أن نستطيع عن واجبات كل فرد من أفراد الإنسان. هـــو أن يعيش آخذا بقواعد الإسلام والشريعة. لا عبرة لمكانه يعني ببلدة الإسلام ام غيرها. وهكذا لا عبرة في أي جماعة يعنى بين جماعة المسلمين أم لا. فيجـــب عليـــه أن يعيش في الإسلام بطاقته وقوته.

أفكاره السياسية

لماّ نعتبر أفكاره السياسية نحتاج إلى فهم الوضع السياسي للهند حينذاك لأن له تعلق عميق بأفكار الدهلوي. ولد الإمام ولي الله الدهلوي قبـــل وفـــاة الســـلطان أورنك زيب عالمكير(م ١١١٨هـــ/ ١٧٠٧م) بأربع سنين. وقد كان السلطان أورنك زيب في ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ أكبر سلاطين شبه القارة الهندية. وكانـــت مملكته وحكومته أوسع الحكومات التى قامت في الهند، يقول مؤلفو "تاريخ الهنـــد" (Cambridge History of India) :

"كانت حكومة أورنك زيب من غزنين إلى شتاغونغ، ومـــن كشـــمير إلـــى كرناتك".[1]

[1] Cambridge History of India, Vol.4, p.316, Delhi, 1970.

ويقول المؤرخون الآخرون: "لم تقم في الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنجليز وغلبتهم مثل هذه الحكومة (حكومة أورنك زيب) الواسعة الأرجاء طويلة الأبعاد". [1]

ولكن خلف أورنك زيب على عرشه العظيم المهيب (وهوالذي كان قد أصبح حاميا للدين وحارسا له وخادما للشعب المسلم بدل أن يكون ماحيا للدين وهادما له ومستغلا للشعب) من أولاده أولئك الأشخاص الضعفاء الذين كأنهم خلفوا أن يتداركوا ما وقع فيه أورنك زيب من خطأ الحفاظ على الدين والذب عنه وإحياء الشريعة الإسلامية وإجراء السنة النبوية وأنهم سيكفرون دائما عن تلك الجريمة التي ارتكبها السلطان أورنك زيب بتوسيعه لحدود المملكة وتنظيمه لإدارة البلاد وتوطيد دعائم الحكومة بيقظته وحنكته وجده ومثابرته وشعوره بالمسئولية وما دخل من الرعب والهيبة شيء في قلوب العامة والأشرار والمفسدين بترفهم وبذخهم وكسلهم وعدم كفاءتهم وصراعهم الداخلي ومنازعاتهم واعتمادهم كليا على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان وغفلتهم عن شؤون الدولة وإدارة البلاد. فكان من سوء حظ الدولة المغولية والأمة المسلمة بل الهند كلها أن توالي على عرش مملكتها ملوك ضعفاء غير أكفاء وكان من عجائب التاريخ أن كان خليفة أورنك زيب الأول (الشاه عالم بهادور شاه الأول) نفسه على الضد من والده العظيم. لقد توالى على عرش الدولة المغولية في عهد الإمام

---

[1] (1) Ibid. p.175. (2) D.P. Mahajan: *Muslim Rule in India*, Delhi, 1971.

الدهلوي (١١١٤ – ١١٧٦هـ/ ١٧٠٣ – ١٧٦٤م) بعد السلطان أورنك زيب أحد عشر ملكا.[1]

أريد أن اقتصر على بيان أحوال الهند وإن كان لا بد أن يذكر أحوال العالم. لأنه لا ينبغي أن لا نغفل حقيقة ذات شأن. وهي أن العصر الذي يولد فيه الإنسان والعالم الذي يعاصره والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه هو كالنهر الجاري تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى وتتسق معها. فلم يكن يمكن مثل الإمام الدهلوي في سعة أفقه وعالمية نفكيره والذي كان اطّلاعه على التاريخ الإسلامي اطّلاعا واسعا عميقا أن يغض النظر عن أحوال العالم لاسيما عن أحوال بلاد المسلمين. قد كان خبيرا بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة وأهميتها السياسية والإجتماعية. وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية الصحيحة والحياة الإسلامية من حكومة مستقلة حرة وقوة سياسية صالحة.

الدولة (State)

كما قال أرسطو يقول الشاه ولي الله "يمكن للدولة أن تعطي حياة طيبة للناس". يريد الدهلوي بالحياة الطيبة الحياة التي يبينها الإسلام ليس غير. وفقا على نظره أن الدولة واسطة إلى الغاية والدولة نفسها ليست غاية. ولذلك قال الدهلوي لا يمكن أن يدفع إمتلاك القوة القسرية مهما تكن الغاية التي لها أسست الدولة، وإذا

---

[1] ابو الحسن علي الندوي: الإمام الدهلوي (رجال الفكر والدعوة في الإسلام /الجزء الرابع)، دارالقلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٦م، ص:٤٠-٤١

أنفذت الدولة هذه القوة بأمانة فيجب على الأفراد كلهم أن يصبح عضوا محبا لتلك الدولة. ولكن إذا تسيطر الدولة هذه القوة بغير أمانة فيلزم على كل واحد من أفراد هذه الدولة أن يجتهدوا لإسقاطها. يجب على الأفراد أن يمتهنوا جودة الدولة التي هم في هذه الدولة وإن كان الواجب عليهم أن يصبحوا عضوا محبا للدولة.

وفي كتابه المشهور "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" يظهر الدهلوي بأقوال واضحة شروط الخلافة الإسلامية يعني الدولة الإسلامية. وفي نظره الخلافة هي شكل الدولة التي أسست أو تأسس لتنفيذ قوانين الشريعة بمطابقة أقوال النبي صلعم. أن المسؤولية الأولى على الخلافة هي إحياء التعليمات الإسلامية وإيرادها في الحياة العملية. وكذلك أن تهيأ الملة للجهاد وإقماح كل الشرور التي تنشأ بسبب سوء استعمال وظائفها.

أوضح الدهلوي بشكل ظاهر العلاقة بين الأفراد والدولة. يقول الدهلوي في ظهور التعليمات الإسلامية "الإنسان ليس جزء وفردا مجردا للمجتمع كما يرى في نحل ونمل وغيرهما" ولكن للفرد قيمة حقيقة لنفسه في الإسلام. يعتبر الإسلام فردا واحدا لفرد هام حتى البداية إلى النهاية. ولكن يعيش كل إنسان في المجتمع بنمط إجتماعي الذي تطوره روحانيته بشكل صحيح. فالواجب على الدولة أولا أن تعتبر تطور الأفراد.

أوصاف الملوك

قال الدهلوي بعض الأوصاف التي يجب أن تكون في الملوك وها هي:

١. يجب أن يكون الملك متصفا بالأخلاق المرضية.

٢. وأن يكون شجاعا.

٣. وأن يكون حليما.

٤. وأن يكون عاقلا بالغا حرا ذكرا ذا رأي وسمع وبصر ونطق.

٥. ولا بد للملك من إنشاء الجاه في قلوب رعيته ثم حفظه وتدارك الخادشات له بتدبيرات مناسبة.

يعني أن الدهلوي أراد السياسية الإسلامية فقط ليس غير. إنه قرر الأخلاق الفاضلة وقال:

"ومن قصد الجاه فعليه أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة مما يناسب رياسته كالشجاعة والحكمة والسخاوة والعفو عمن ظلم وإرادة نفع العامة ويفعل بالناس ما يفعل الصياد بالوحش فكما إن الصياد يذهب إلى الغيضة".[١]

الحاجة إلى السلطان

قد ذكر الدهلوي عن الحاجات الماسة إلى السلطان. قال تحت عنوان "الإرتفاق الرابع" :

"وهي الحكمة الباحثة عن سياسة حكام المدن وملوكها وكيفية حفظ الربط الواقع بين أهل الأقاليم وذلك أنه لما أفرز كل ملك بمدينته وجبى إليه الأموال وانضمّ إليه الأبطال أوجب اختلاف أمزجتهم وتشتت استعداداتهم أن يكون فيهم الجور وترك السنة الراشدة وأن يطمع بعضهم في مدينة الآخر وأن يتحاسدوا

---

[١] الامام الدهلوي: حجة الله البالغة. ١/٤٥.

ويتقاتلوا بآراء جزئية من نحو رغبة في الأموال والأراضي أو حسد وحقد، فلما كثر ذلك في الملوك اضطروا إلى الخليفة وهو من حصل له من العساكر والعدد ما يرى كالممتنع أن يسلب رجل آخر ملكه".[1]

كذلك لماّ نبحث عن أفكاره السياسية نرى عنوان الإمام الدهلوي للمبحث السادس بـ"مبحث السياسات الملية". وهو من أهم المباحث في كتاب حجة الله البالغة (ص: ٨٣-٨٤). وقد صرح الإمام في الباب الأول منه بوجوه حاجة الناس وأسبابها إلى هداة السبل ومقيمي الملل يعني الأنبياء والرسل ولماذا لا تكفيهم في هذا الصدد عقولهم العامة وفطرتهم السليمة ومن هنا يفهم أن الإمام قد انقسم السياسة بقسمين (١) السياسية الملية (٢) السياسية الملكية.

العناصر التي أثرت في أفكاره السياسية

١. انحطاط الملوك المسلمين في مغل كما تقدم بيانه.
٢. رحلته إلى الحجاز.
٣. فساد النظام وملوك الطوائف والقلق والإضطراب.
٤. استدبار المسلمين من الثقافة الإسلامية الشريفة.
٥. شوقه للقرآن والسنة والشريعة الإسلامية.
٦. رغبته إلى سلامة الهند.

ويحدثنا التاريخ أن الوثنيين والصابئة استولوا على بلدة "أجمير" ونواحيها وبلدة "دلهي" وأرجائها. فكان في أجمير الإمام العارف معين الدين الأجميري سببا

---

[1] المصدر السابق: ٤٧/١.

لغلبة الإسلام على الوثنية وقام من بعده خليفته الإمام العارف قطب الدين بختيار الكاكي فاستبقى شوكة المسلمين في دهلي وتوابعها.

وقد طغى على أرض 'البنجاب' جبورت أهل الكفر من أمم 'الشيخ' واستشروا في بغيهم ولجوا في استطالتهم على الإسلام وتفاقم الشر فأصلح الله حاله بوجود الإمام الرباني المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي. وهكذا أصبحت أنفاسهم ونفثاتهم وآرائهم وأفكارهم وجهودهم المتواصلة أسسا متينة لبقاء الإسلام وإحياء شعائر الدين وتجديد معالم الشرع وهكذا كانوا حصونا منيعة وسدودا قائمة دون فتن يأجوجية دائمة.

قد جاء الإمام الدهلوي بعدهم متبعا أقدامهم ولذلك قال رحمه الله تعالى في باب إقامة الإرتفاقات وإصلاح الرسوم من حجة الله :

"اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان تعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها... (إلى أن قال) وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم... (إلى أن يقول) وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم إلا وقد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وتغلغت في نفسه وأهاجت عليه هموما وغموما لا أرجاء لها وذلك أن تلك الأشياء

لم تكن تحصل إلا ببذل أموال خطيرة لا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم. فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس والحصاد ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم فاما عظمت هذه المصيبة واشتد هذا المرض سخط الله عليهم والملائكة المقربون. وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته". انتهى ملتقطا ملخصا.

وراجعه كله فإنه كلام حكيم من حكماء الإسلام وكلمات طيبة صادرة عن طبيب من أطباء القلوب كلها درر وغير. وكذلك قال الدهلوي في (فيوض الحرمين،ص:٨٩) عن منام الذي فيه أنه رأى نفسه قائم الزمان يعني بذلك أن الله تعالى إذا أراد شيئا من نظام الخير جعله كالجارحة لا تمام مراده. أنه رأى فيه أن ملك الكفار قد استولى على بلاد المسلمين ونهب أموالهم وسبى ذرياتهم وأظهر في بلدة "أجمير" شعائر الكفر وأبطل شعائر الإسلام والعياذ بالله. (وأخيرا) إنه رأى ملك الكفار بطش به القوم وصرعوه وذبحوه بسكين فلما رأى الدهلوي الدم يخرج من أوداجه متدفقا انه قال: "الآن نزلت الرحمة والسكينة. وشملت من باشر القتال من المسلمين وصاروا مرحومين". رأى ذلك ليلة الجمعة الحادية والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة ١١٤٤ هـ/ ١٧٣٢م.

وتعبير ذلك المنام يقصّه علينا تاريخ عهده، إذ كان المترفون من القوم قد أصبحوا منغمسين في أنواع من الترف والنعيم مستغرقين في أصناف من الشهوات

واللذات منهمكين في أشنع الخلاعة والدعارة الشنعاء قد سلكوا في نظام الحكومة خطة عوجاء حتى تسرب الفساد إلى سائر قواهم وسرى الوهن في جميع المجتمع الإسلامي الهندي ودأب القوم على آداب الأكاسرة والقياصرة في جميع مرافق حياتهم ونظام معيشتهم فألهتهم عن الدين والدار الآخرة. وهكذا تكون حال الأمراء إذا استعبدتهم الأهواء يتجرعون غصص ترفهم ويذوقون مرارته ويتحملون من جرائه ذلة وهوانا وخزيا فادحا. ولايفلتون من قبضة البطش الإلاهي ولات حين مناص. يقوم رجل من ولاة الأمور من الوثنيين من جنوب شرق الهند سنة ١١٤٦هـ/ ١٧٣٤م. ويستولى على بلاد المسلمين. ولا يزال يمتد ملكه وينموا سلطانه ويزداد انتشارا يوما فيوما إلى أن يقبض بكلتا يديه على بلاد الأمة المسلمة فيستولى على الكجرات ومالوه وناكبور وغيرها. ثم يموت ويخلفه ابنه على سرير الولاية والحكومة فتزيد أرجاء مملكته وتتسع أطرافها فتصل إلى وسط شمالي الهند وما يستطيع أحد من ولاة المسلمين صراعه وعراكه فيبلغ السيل الزبى ويصبح الخطب أدهى وأمر. فعند ذلك يريد الله أن يدرك المسلمين برحمته فينعقد في دهلي بنفثات الإمام ولي الله الدهلوي "حزب التجديد والإنقلاب" ويظهر في الوجود مجتمع إسلامي كما يقوله الفاضل الشيخ عبيد الله الديوبندي.[1] وأيضا أنه قال: انتخب الإمام الشاه ولي الله إماما فعمل على تبديل السلطنة وتجديدها على قواعد الخلافة الإسلامية سنة ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م.

---

[1] محمد اليوسف البنوري: مجلة الإسلام، مصر، العدد ٢٥، اغسطس، ١٩٣٨م

تأثير أفكاره السياسية

كان عصر الدهلوي أحد أكثر الفصول العاطفية للحركات الإسلامية الإحيائية في شبه القارة الهندية كما تقدم ذكره. ولنظريته الإسلامية السياسية في الهند المعاصرة أيضا اهتمام كبير خاصة في مناظرة الهندوس وطائفة الإسلام. إن مساهمته الأهم لمجتمعه هي تعليماته التي أبقت حية في الحياة الدينية للمسلمين الهنود وارتبطت بروحهم الداخلية لإعادة مؤسسة السلطة الإسلامية العامة في الهند.

كانت سمة الدهلوي المميزة قدرته لمصالحة وجهات النظر المعارضة إلى رضاء كل جانب. المقام الذي وراء هذه السمة هو وحدة المجتمع الإسلامي أو الأمة. وقد مكنت قدراته القوية كمصالح لتوفير المقام المشترك وقاعدة قوية للتعاون والإنسجام بين السني والشيعي. وموقعه الممتاز قرب مركز الدولة الإسلامية أعطاه وجهة نظر الحالة الواضحة. إنه عمل بوسعه لجلب الإستقرار الإمبراطور المرنح فيحمي المسلمين الهنود من الكارثة.

إنه ناشد الحكام المسلمين والنبلاء والمثقفين لأن يكونوا مدركين للحالة المخيفة ونتائجها المحتملة. تكشف مراسلاته عديدا من عوامل السياسية الهندية في القرن الثامن عشر. ومن مراسلاته رسالة لها أهمية كبيرة. وهي رسالة إلى أحمد شاه الأبدالي حاكم أفغانستان. وكان فيها صورة شاملة للحالة السياسية في الهند. نادى الدهلوي أحمد شاه الأبدالي وطلب أن يجيئ إلى الهند. أجاب الأبدالي لطلبه. وذلك بأن السلطان "أحمد شاه الأبدالي" جاء من بلاد أفغانستان بجنوده الأبطال

الكماة فرأى القوم آثاره في معارك حامية. ودارت رحى الحرب الزبون بين عباد الأصنام وعباد الإله الحق في مواقف "قانيفت" على مسافة قريبة من قاعدة الهند "دلهي". وكانت مواقف حاسمة. فبلغت الدماء القنن واشتد القتال بين الفريقين وذلك سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٢م. ولا تسئلكم خر يومئذ في الوثنيين من قتلى وصرعى وقد غادرهم المسلمون لحما على وضم. هكذا أذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر وبلغ قتلاهم إلى مائتي ألف فكان حادثا مشهودا في تاريخ الهند.

ولم يعش الإمام الدهلوي بعد هذا الفتح كثيرا بل توفي سنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٤م. إنه كان إماما لحزب من أنصاره واتباعه المجاهدين المخلصين جعل الله على أيديهم هلاك المتغلبين من أعداء الله الوثنيين وحفظ لهم قاعدة الهند وواسطة عقدها مدينة 'دلهي' حرسها الله. بل هذا تأويل رؤياه التي تقدم ذكرها.

الأمر الهام الذي يحتاج أن يذكر أنه كان فكره السياسي والديني مؤسسا على نظرية الفارسية والإسلامية للملوكية.[1] وكذلك أنه يعتبر محمود الغزنوي وأورنك زيب أبطاله بين الحكام المسلمين.

---

[1] السيد عطر عباس رضوي: الشاه ولي الله الدهلوي ووقته ، ص: ٣٩٧.

الفصل الثالث : مصادر أفكاره

المركز الذي دارت عليه أفكار الدهلوي الفلسفية هو دين الإسلام. وعلى قوله كان لدين الإسلام فقط مصادر القوة والشجاعة. وكذلك كان سبب خسران المسلمين هو عدم مبالاة أحكام دين الإسلام. ولذلك إعتباره الهام كان إن ينادي المسلمين إلى تعاليم الإسلام. وكان له إيمان قوي على الفكرية الإسلامية. إنه قد آمن بأنه إذا أقبل الفكر الإسلامي كاملا واستعمله بالأمانة يتربص السلامة تطور مزدهر للإنسان. صرف الدهلوي هكذا طاقته إلى فكرته الإسلامية النظافة للتأثر غير القوية ويعطيها مقاما جديدا عقيلا لإلتقاء تحديات الوقت.

وكان الشاه ولي الله عالما عن فرجة بين الحياة التي ينطقها القرآن والحديث وبين الحياة التي أنشأها المسلمون لأنفسهم وكذلك كان عالما عن فرجة بين العادات الإجتماعية والسياسية التي يعطيها الإسلام وبين العادات الإجتماعية والسياسية التي تطورها المسلمون لأنفسهم منذ القرون السابقة.

نستطيع أن ننقسم مصادر أفكاره إلى ثلاثة أقسام. (١) القرآن (٢) السنة (٣) أفكار المفكرين المسلمين السابقين. هلا نبحث عن كل واحد منها:

(١) القرآن

إن القرآن هو كلام الله المنطوق أوحي إلى رسول الله صلعم بطرق مختلفة ونزل على قلبه بكيفيات متعددة. وكان الوحي باللفظ والمعنى. قد تعلم الدهلوي القرآن وأحكامه من والده الكريم. ولذلك حصل منه المعلومات النافعة. يرى

الدهلوي في أسباب النزول كما يراه بعض الباحثين أن السبب في نزول الآيـــة أو الآيات قد يرجع إلى وقوع حادث بعينه. ولكن حكمها يدوم ويستمر ويعم الجميـــع. وعلى ارتباطه بالسبب الخاص والخلفية المعينة يبقى حكمها على عموم المعنى ولا يقتصر على خصوص اللفظ والسبب. ومن الناحية البلاغية بلغ القرآن الذروة التي لا تسامى وهو كلام معجز لا يدانيه كلام آخر. ولهذا كانت العرب الأوائل تـــأثروا منه تأثرا شديدا بمجرد اجتماعهم إليه. ومع أن القرآن نزل منجما ومتـــدرجا مـــع المناسبات الفردية والإجتماعية لكنه يوفي الحاجات البشرية جمعاء بغض النظر عن الزمان والمكان ولهذا يعتبر العلم بالقرآن أعظم العلوم وأجلها. وســـيظل القـــرآن الكريم محتفظا بهذه الميزة إلى يوم القيامة لأن الله تعالى تولاّه بالحفظ والصـــيانة، نرى في حجة الله البالغة آيات القرآن واردة لإثبات الأمور التي قالها في الحجة.

(٢) الحديث

الحديث أيضا مصدر عظيم تأثر منه الدهلوي كثيرا. أن رأيه فـــي تـــدوين الحديث واضح جدا، هو أن الأحاديث لم تدون في الصـــدر الأول وبـــدأ الإهتمـــام بكتابتها بعد القرن الأول للهجرة وتم إنجاز هذا العمل بعد القرن الثاني. وقد أقـــام الدهلوي الدلائل الحامسة السديدة على فضيلة المؤطأ ورفعة قدره وقد أعاد الدهلوي أصول التوفيق بين الأحاديث المتعارضة في ظاهرها إهتماما بالغا. هـــذا العمـــل صعبة للغاية. ولكن فعل الدهلوي هذا العمل عملا لا يوجد له نظير. يدل هذا على قوّته ورفعة مكانه.

يقول الأستاذ محمد ياسين مظهر الصديقي عن هـذا العمـل الـذي فعلـه الدهلوي بهذه الأقوال: وبهذا التبحر والإلمام يصير الباحث متمكنا من فقه الحـديث ومطلعا على أسراره وخبيرا بدخائله. وقد قام قبل الدهلوي الإمـام الغزالـي فـي "الإحياء" والإمام عز الدين بن عبد السلام في "القواعد الكبـرى" وغيرهمـا مـن المحدثين بقدر ما توفرت لهم من إمكانيات بإزاحة الستائر عن أسـرار الأحاديـث ولكنهم لم ينجحوا كثيرا وكانت نسبة نجاحهم ضئيلة جدا. وقد اختصّ الله الـدهلوي بهذا العمل الجليل وأودع فيه صلاحيات هائلة وكفاءات جبـارة لتحقيقـه وكشـف أسرار الدين وإدراك كنه الحديث الشريف واستجلاء روحه. وتوجد نماذج كثيـرة لتبحره العلمي في كتبه ومؤلفاته, غير أن عمله العبقري في هذا المجال هو كتابـه "حجة الله البالغة". ولم يترك فيه بابا من أبواب الدين والإجتماع إلا وطرقه فحـل عقدهما وعالج مشاكلهما.

(٣) أفكار المفكرين المسلمين السابقين

قد أثر في الدهلوي كثير من العلماء الكتاب المفكرين في العالم الإسـلامي. سنقول عن البعض الذين أثروا في الفكر السياسي والفكـر الإجتمـاعي والفكـر الفلسفي. وفي غيرها أثر فيه كثيرا علماء التصوف ومشايخ الحديث مثـل الشـيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني والشيخ محي الدين بن العربـي والشـيخ أحمـد السرهندي. قد نوه الدهلوي في حجة الله البالغة أسماء الإمام الغزالي والخطـابي[1]

---

[1] هو ابو سليمان احمد بن محمد البستي صاحب 'معالم الإسلام' (الحجة :٦/١)

وعز الدين بن عبد السلام.[1]

ومن الذين أثروا في الفكر السياسي والإجتماعي الفارابي وابن سينا ومسكويه والدواني وأحمد السرهندي. ويقال أن الفاربي أبرز أوّلا الأفكار التي تخلط تأسيس الأنبياء مع الإتساعات الثقافية. وأبرزه الدهلوي كاملا في الحجة. وقد رأينا في الفارابي ميل تقسيم المجتمع والسياسة على الأسس الأخلاقية. والموضوع الآخر هو السعادة والفوز في الآخرة وفيها قد شارك الفارابي والدهلوي.

والإمام الماوردي هو العالم الآخر الذي أثر في الدهلوي. وكتابتهما عن الإمامة والخلافة كشيئ واحد. وكذلك آراء الماوردي عن القضاء والجهاد في كتابه "الأحكام السلطانية" هي نفسها آراء الدهلوي عن هذين. ويجيئ التعجب إن لم يؤثر فيه مثل الإمام الغزالي الذي لمع في السلسلة العليا للفكر الإسلامي. وقد يفهم كل من الذي يبحث التاريخ الإسلامي، المشاركة بين الغزالي والدهلوي في الفلسفة والتصوف. وكلهما مندوبان أسرار العلوم الدينية والعقلية. وكذلك كتابهما "الإحياء" و"الحجة" مثل هذين النبيلين.

---

[1] الامام الدهلوي: حجة الله البالغة، ص: ٦/١

الباب الثالث

حجة الله البالغة : دراسة تحليلية في ضوء الأخلاقيات

الفصل الأول : المضمون في الحجة ومنهجه فيها

الفصل الثاني : القيمة العلمية للكتاب

الفصل الثالث: الأخلاقيات في أعمال الشاه ولي الله الدهلوي

حجة الله البالغة : دراسة تحليلية في ضوء الأخلاقيات

إن من أروع الأعمال التي قام بها الشاه ولي الله الدهلوي في حياته كتابه العظيم " حجة الله البالغة". هي العمدة في جميع ما ألف وصنف من الكتب والرسائل في علم أسرار الشريعة. وهو من الكتب التي حازت رضى العلماء وطلبة العلم على السواء. فلما يتصف هذا الكتاب بخصائص وميزات انفرد بها عن سائر الكتب التي عالجت أسرار أحكام الشريعة. فموضوعاته مبتكرة وأسلوبه جيد وعبارته عربية ناصعة واضحة. ليس قول 'رحيم بخش' في تعريف هذا الكتاب عجيبا. إنه قال:-

"إنه كتاب عظيم قد فسر فيه جميع العبادات والمعاملات بكل شرح وبسط على غرار التحقيق. وقد أبرز فيه اختلاف مذاهب الفقهاء والمحدثين بأحسن الأساليب وبكل براعة وحذف. وفي الحقيقة قام المؤلف باستئناف بناية فقه الحديث مراعيا تحقيق المسائل الفقهية والمذاهب الأربعة - الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي - مستنبطا من مذاهب الصحابة والتابعين وأقوال جماعة من الفقهاء المحدثين. فقد أبان أسرار الحديث ومصالح الأحكام بطراز بديع لم يعهد له مثيل في المصنفين القدامى".[1]

يقول الدهلوي نفسه متحدثا عن أهمية الموضوع:-

---

[1] رحيم بخش: حيات ولي، افضل المطابع ، دلهي، ص:٣٠١

"هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها فهو والله أحق العلوم أن يصرف فيه - من أطاقه - نفائس الأوقات. ويتخذه عدة لمعاده بعد ما فرض عليه من الطاعات. إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع وتكون نسبته بتلك الأخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الأشعار.... وبه يأمن من أن يكون كحاطب الليل او كفائض سيل او يخبط خبط عشواء ويركب متن عمياء...."[1]

وقد صدق صاحب الثقافة الإسلامية في الهند فيما قال عنه:-

"وإذا سمعت من لفظه الرقيق المعرب البديع خيل إليك كأنما هو رجل نشأ ببادية من علماء هوازن او كأنما أدبته امرأة من سفلى بني تميم...."[2]

ويقول صاحب نزهة الخواطر راويا عن ولد الدهلوي عبد العزيز:-

"وكتاب حجة الله البالغة هي عمدة تصانيفه في علم أسرار الحديث ولم يتكلم في هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه - من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدمات والمبادئ واستنتاج المقاصد منها إلى المجلس والنادي. وإنما يستشم نفحات قليلة من هذا العلم في كتاب 'إحياء علوم الدين' للغزالي وكتاب 'القواعد الكبرى' للشيخ عزّ الدين بن عبد السلام المقدسي. وربما يوجد بعض فوائد هذا العلم في مواضع من الفتوحات الملكية للشيخ الأكبر و'الكبريت الأحمر'

---

[1] حجة الله البالغة :١ /٣

[2] عبد الحي الحسني : الثقافة الاسلامية في الهند، ص :٤٦

للشيخ ابن العربي. وكذا مؤلفات تلميذه الشيخ الكبير الشيخ صدر الدين القنوجي. وقد جمعها الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتاب 'الميزان'. انتهى"[1]

عنوان الكتاب

وقد سمى الإمام الدهلوي كتابه'حجة الله البالغة' بهذا الإسم مستنبطا من الآية القرآنية – "قل فللـّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين"[2] قاله الدهلوي نفسه في خطبة هذا الكتاب قبل المقدمة.[3]

الفصل الأول : المضمون في الحجة ومنهجه فيها

ويتضمن هذا الكتاب خطبة الكتاب ومقدمة و قسمين كبيرين (١) القسم الأول في القواعد الكلية التي تستنبط منها المصالح المرعية في الأحكام الشرعية (٢) القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي صلعم تفصيلا. وبعد إكماله القسم الثاني ذكر أبوابا عن السير والفتن والمناقب. وإذا نظرنا حسب القسمة إلى الجزئين هذا كما يأتي ....

- الجزء الأول
  - خطبة الكتاب
  - المقدمة
  - القسم الأول

---

[1] عبد الحي الحسني : نزهة الخواطر، مكتبة دار عرفات، راي بريلي، ١٩٩٢ ، ص : ٦/٤١٤

[2] القرآن : ١٤٩/٦

[3] حجة الله البالغة :٤/١

- القسم الثاني- إلى باب ثياب المصلي

➢ الجزء الثاني

- باقي القسم الثاني- من باب القبلة إلى آخره
- أبواب نادرة من السير والفتن والمناقب.

والعناوين الرئيسة في القسم الأول كما عرضها المؤلف كالآتي :

- ✓ المبحث الأول في أسباب التكليف والمجازة
- ✓ المبحث الثاني مبحث كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات
- ✓ المبحث الثالث مبحث الإرتفاقات
- ✓ المبحث الرابع مبحث السعادة
- ✓ المبحث الخامس مبحث البر والإثم
- ✓ المبحث السادس مبحث السياسات الملية
- ✓ المبحث السابع مبحث استنباط الشرائع من حديث النبي صعلم
- ✓ تتمة

وبعد كل واحد منها أورد أبوابا كثيرة. وقلما يستعمل المؤلف كلمة 'فصل'. والفصل الواحد الذي أورده في آخر التتمة هو فصل في عدة أمور مشكلة من التقليد واختلاف المذاهب وغيرهما. وكذلك جاءت في كتابته مقدمة مناسبة تحت المبحث الخامس : مبحث البر والإثم باسم'مقدمة في بيان حقيقة البر والإثم'.

والعناوين الرئيسة في القسم الثاني كما عرضها المؤلف كالآتي:

❖ من أبواب الإيمان

- من أبواب الإعتصام بالكتاب والسنة
- من أبواب الطهارة
- من أبواب الصلاة
- من أبواب الزكاة
- من أبواب الصوم
- من أبواب الحج
- من أبواب الاحسان
- من أبواب ابتغاء الرزق
- من أبواب تدبير المنزل
- من أبواب سياسة المدن
- من أبواب المعيشة

نتعجب حينما نرى إتيان المؤلف مقدمتين تحت 'باب المقامات والأحوال' الذي جاء تحت عنوان "من أبواب الإحسان". وهما مناسبتان عظيمتان (١) المقدمة الأولى في إثبات العقل والقلب والنفس وبيان حقائقها والدليل على ذلك نقلا وعقلا وتجربة واتفاق العقلاء (٢) المقدمة الثانية في بيان كيفية تولد المقامات والأحوال منها.

منهج المؤلف في الكتاب

لعل الكتابة عن منهج العالم مثل الدهلوي وطرقه وأساليبه تعد من المواضيع الهامة والمتميزة والصعبة إلى حدّ ما، نظرا لما يتطلبه هذا النوع من البحث من فن واطلاع ودراية وتمكُّن، بل ودربة تقتضي من الباحث أن يلم بكل القضايا

والمسائل والمناقشات. والدليل الذي كتبه ذلك العالم حتى تخرج دراسته متكاملة متميزة يعطي القارئ تصورا كليا مفصلا للمنهج الذي سار عليه ذلك العالم.

وهذا مماّ لم يتوافر في هذا الفصل لاعتبارات عدة لعل من أبرزها قصور الجهد ومحدودية المدة وضيق المصاحة المخصصة لمثل هذه الدراسة ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله وبالتالي فإن العرض سيكون مركزا على بيان منهج المؤلف في الظهور على أسرار الشريعة وأحكامها.

يمكن إجمال منهج المؤلف في كتابه في النقاط التالية:-

١) أورد المصنف خطبة الكتاب الطويلة. وبيـّن فيه سبب تأليفه هذا الكتاب بقوله : "وبينا أنا جالس ذات يوم بعد صلاة العصر متوجها إلى الله إذ ظهرت روح النبي صعلم وغشيتنـــي من فوقي بشيئ خيل إلى أنه ثوب ألقي على ونفث في روعي في تلك الحالة أنه إشارة...."حتى قال :"ثم رأيت الإمامين الحسن والحسين (ر) في منام وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطياني قلما وقالا هذا قلم جدنا رسول الله صلعم...ثم أرجع قهقري إذ تفطن أجل إخواني لدي وأكرم خلاني'علي محمد' المعروف بالعاشق لا زال محفوظا من كل طارق وغاسق بمنزلة هذا العلم وفضائله...."[1] يعني أن الشيخ علي محمد العاشق قد أجبر الدهلوي على الكتابة.

٢) بيـّن المؤلف الموضوع بالإيماء والإشارة في خطبة الكتاب نفسها للحجة

---

[1] حجة الله البالغة : ١/ ٣،٤

بقوله: "إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين صلعم من قول او تقرير. فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى وبمنزلة البدر المنير". وأوضح بعد ذلك بقوله: "وإن أدق الفنون بأسرها عندي وأعمقها محتديا وأرفعها منارا وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارا هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام...."[1]

٣) إنه يرغّب القارئ ببيان فضيلة هذا العلم بقوله : "من انقاد لها (لعمدة العلوم) ووعى فقد رشد واهتدي وأوتي الخير الكثير. ومن أعرض وتولى فقد غوي وهوي وما زاد نفسه إلا التخسير".[2]

٤) إنه أورد آراءه بالنسبة الى نفسه فقال مستئنفا إما بكلمة 'عندي' أو 'فيما أرى' أو 'أقول' ومثل ذلك كثير في كتابه. وأظهر مراده بهذا الكتاب موردا قول "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب". ويقول بعد ذلك :"وها أنا برئ من كل مقالة صدرت مخالفة لآية من كتاب الله او سنة قائمة عن رسول الله صلعم او إجماع القرون المشهود لها بالخير او ما اختاره جمهور المجتهدين ومعظم سواد المسلمين. فإن وقع شيء من ذلك فإنه خطأ ورحم الله تعالى من أيقظنا من سنتنا او

---

[1] المصدر السابق : ١/ ١،٢

[2] المصدر السابق : ١/ ٢

نبهنا من غفلتنا".[1]

٥) إنه أجاب لمن ادّعوا بأن الإجماع ليس دليلا في الشرع بقوله 'او إجماع القرون المشهود لها بالخير'. وكذلك لمن منعوا حصول العلم بالكشف ووجود الصوفية بقوله "ولا تتبين أسراره (الدين) إلا من تمكن في العلوم الشرعية بأسرها واستبدّ في الفنون الإلهية عن آخرها ولا يصفو مشربه إلا لمن شرح الله صدره لعلم لدني وملأ قلبه بسرّ وهبـــي...."[2] ومع ذلك الأسباب التي سبقت من قبل أيضا تكون جوابا لهم.

٦) إنه أوضح النفرة لمن انتحلوا في الإجماع بعد الإجتهاد بقوله "أما هؤلاء الباحثون بالتخريج والإستنباط من كلام الأوائل المنتحلون مذهب المناظرة والمجادلة. فلا يجب علينا أن نوافقهم في كل ما ينتمون به ونحن رجال وهم رجال والامر بيننا وبينهم سجال".[3]

٧) إنه قد تحرى الدقة والأمانة في إيراد الأمور فيقول بعد انتهاء الباب او مسئلة واحدة 'والله أعلم'. وكذلك يرى في كتابه قول 'اعلم' كثيرا للإنتباه.

٨) استخدم المؤلف منهجا متميزا في الأدلة والإستدلال. فلا يورد الدليل إلا عند الحاجة إليه. ويستخدم مع كل قضية مطروحة ومسئلة غريبة ما يناسبها من أدلة. فهو يقدم الإستشهاد بنصوص الوحيين على ما سواهما.

---

[1] المصدر السابق : ١٠/١

[2] المصدر السابق : ٣/١

[3] المصدر السابق : ١١/١

٩) التبويب والتنظيم والعناوين الصغيرة: جعل المؤلف كتابه قسمين. وكل قسم يتفرع منه أبواب عديدة. وكل باب يحتوي على عدة مباحث. بل المبحث الواحد قد يحتوي على العديد من الفقرات. وكل ذلك تم بشكل مرتب ومتناسق.

١٠) قد استعمل الدهلوي بعض المصطلحات التي انفرد بها الدهلوي نفسه. وإليك نموذجا يمثل ما ذكر أعلاه:-

١. فكرة 'التشبح' التي تظهر كثيرا عنده. كقوله "إن من الإنسان اليقظان بالطبع يتفطن بالأمر الجامع بين الكثرات ويمسك قلبه بالعلة دون المعلولات والملكة دون الأفاعيل. ومنه الوسنان بالطبع يبقى مشغولا بالكثرة عن الوحدة وبالأفاعيل عن الملكات وبالأشباح عن الأرواح".[١]

٢. عالم المثال : قد أفرد الدهلوي بابا لهذا الإصطلاح.

٣. الملأ الأعلى : قد أفرد بابا لهذا أيضا.

٤. حقيقة الروح وغيرها كثير....

١١) إنه استقبل طريقا خاصا به لكشف الأمور الدقيقة وأسرار العبادات والتكليف.

---

[١] المصدر السابق : ٣٣/١

الفصل الثاني : القيمة العلمية للكتاب

لقد تميز هذا الكتاب بمزايا علمية. قلما توجد في نظيره من الكتب حيث ضمّ بيـــن دفتيه كمّا هائلا من المسائل العلمية المبوّبة في بيان أسرار الشريعة. ولعل هذا الكشف والتبيين سيؤدي دوره في الأمور التالية.

١. نال هذا الكتاب مكانة مرموقة بين العلماء والمصنفين. وقد لاقى القبول العام في صفوف الباحثين والمحققين ببحوثه العميقة ودراسته الدقيقة في علم الأخلاق والفلسفة الإسلامية.

٢. هذا الكتاب جمع بين علوم الفقه والحديث وأسرار مصالح الأعمال.

٣. أثبت هذا الكتاب عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج. وطهرها من قذى أهل المعقول. وأعطى علم الإبداع والخلق والتدبير والتدلي مع طول وعرض. وعلم استعداد النفوس الإنسانية لجميعها وأفاض عليه الحكمة العلمية وتوفيق تشييدها بالكتاب والسنة وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول. وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية.[1]

٤. ظلّ هذا الكتاب علم الكلام الجديد الذي يجد فيه أي إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطيب القصد أرواء كاملا لغليله وزادا كافيا لقناعته وطمأنينته. ولم يؤلف كتاب في تأييد أي ديانة من الديانات وتفسيرها اللبق الحكيم وفلسفتها الجامعة

---

[1] عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر ، ٤١٥/٦

المتناسقة كهذا الكتاب في منزلته ومكانته.[1]

٥. هذا هو الكتاب الواحد الذي يبين عن عالم المثال وملأ الأعلى حتى عصر الدهلوي.

٦. يبين هذا الكتاب فلسفة الدين والقانون والفقه وعلم الحسن وعلم النفس وعلم الإجتماع وعلم الإقتصاد وعلم السياسة وعلم الإنسان (الانثروبولوجيا) والتصوف وغيرها.

٧. يبين هذا الكتاب جميع المجالات الإجتماعية والجمهورية التي ترد متعلقة بالإسلام مثل التطهير الروحي والتجارة والتصرفات المالية وسياسة الملوك والحكومة والعدالة والتعلقات الأممية (الدولية العالمية).

٨. يواجه هذا الكتاب هذه التحديات والمقتضيات التي وجدت في عهد 'العقلانية' الخاصة الذي كان بعد القرن الثاني عشر الهجري بقليل. قد أوشك - لأسباب تعليمية وتربوية ومدنية وعقلية وعلمية وفكرية - على الظهور في الهند وفي العالم الإسلامي كله. فنزعة البحث والتفتيش عن مصالح الشريعة الإسلامية وحكمها وأسرارها التي كادت تعمّ وتسود. والتي كانت تتهيأ بسببها عقول كثيرة للضلال والإنحراف وأقلام كثيرة للزيغ والإنطلاق. وكان الحديث والسنة النبوية مستهدفة للشبهات والإعتراضات.

---

[1] ابو الحسن علي الندوي: الإمام الدهلوي (رجال الفكر والدعوة في الإسلام /الجزء الرابع)، دارالقلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٦م، ص: ١٦٧.

٩. يستطيع لهذا الكتاب أن يحول الإنسان إلى إنسان الذي له كمالية.

وصدق أبو الحسن علي الحسني الندوي عن حجة الله البالغة لما قال: "إن كتاب حجة الله البالغة للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية. وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والاخلاق والإجتماع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيب وترابط ونظام وفي تناسق واتّزان بحيث يخيل إليك كأنها لآلأُ العقد المنظوم او حلقات سلسلة مترابطة مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمية المستقلة والأمور العارضة المؤقتة....."[١]

ميزته اللغوية

كان عصر الدهلوي عصر التفكك السياسي والإضطرابات والحروب الداخلية في العالم الاسلامي. إن الخلافة العثمانية فقدت سيطرتها ومهابتها. وفي الوقت ذاته كان الإستعمار العربي قد بدأ يدبّ دبيبا من وراء الأستار وتحت شعارات خادعة. وفي هذه الأوضاع الرهيبة قام الإمام الدهلوي بمهمة عظيمة من الإصلاح والتجديد. وشهد التاريخ أنه أصبح رمزا لتغيير مجرى الأحداث في مجال العلم والمعرفة. واعتبر التاريخ شخصيته معلما يفصل ما بعده عما قبله،

---

[١] المصدر السابق: ١٦٧/٤

وتجلى عبقرية هذا الرجل النابغ في أكثر مجال. ومنها ما يلي:-

١) أسلوب الدهلوي الأدبي الرائع لا يجعلك تحس بشيء من الثقل حين تقرأه ولا يجنح بك إلى الغموض فتنفر منه. فهو يجمل ويفصل في عبارات سهلة لا تكلف في ألفاظها متلاحقة المعاني حتى لا يتداخل بعضها في بعض فيشق عليك استيعابها.[١]

٢) فالأدب العربي فقد تدهور تدهورا كبيرا إثر سقوط بغداد عام ٦٣٤هـ/ ١٢٥٨م. فقد خرب هذا الحادث الفاجع مركز الثقافة العربية المزدهرة. فاللغات الأخرى مثل الفارسية والتركية وغيرها قد انتزعت مكان اللغة العربية التي كانت لغة رسمية ولغة عامة للعالم الإسلامي. فأصبحت هذه الحوادث مهلكة على اللغة العربية. ونتيجة لهذا فقدت اللغة العربية سذاجتها وجمالها ورونقها وبهاءها.[٢] فحالة اللغة العربية في الهند ليست مختلفة عن حالها في العالم كله. يعني لقيت اللغة العربية والدراسات الإسلامية بالإنحطاط والتدهور والتخلق إلى حد كبير خاصة بعد سقوط الحكم المغلي على يد الإنجليز. فالدهلوي قد ألف هذا الكتاب في ذلك العصر المرتبك وفي عصر الإنحطاط الفكري والتدهور اللغوي. فقد أبدع المؤلف ما أبدع في النثر العربي. وهو فريد في تاريخ الهند الإسلامي في هذا الشأن.

---

[1] محمد عبد الله سلمان: مجلة الأزهر، ج- ٧،٨ (رمضان، شوال) /١٩٦٤م،ص: ٨٨٦.

[2] ....., Islamic culture: vol-76 , No-3, July 2003, Hyderabad, Deccan, India

٣) عربية هذا الكتاب ناصعة خالية من الأثر المحلي. وأسلوبه رصين متين يجذب القلوب ويلامس الوجدان. قلما نجد العلماء الذين خلت عربيتهم من الأسقام الأدبية وتطابقت الذوق السليم وتحلت بالسلاسة والسذاجة والرزانة. وإذا تتبّعنا تاريخ الهند في شأن الأدب والإنشاء لا نستطيع أن نرى العلماء عدا غلام علي آزاد البلغرامي وبعض المصنفين الهنود مثل الدهلوي.

٤) قال في شأن هذا الكتاب الأستاذ أبو الحسن علي الندوي : إن الإمام الدهلوي هو المصنف الأول من المصنفين الهنود الذين نجد في تصانيفهم وبالأخص 'حجة الله البالغة' السلامة والسلاسة وقدرة البيان وعذوبة اللسان مثل أهل اللغة. وعربيته تتحاذى بعربية أدباء العرب. فلا ترى فيها الأسقاط والأسقام التي توجد في غالب الأحيان في كتابات علماء العجم.[١]

٥) هذا الكتاب خال عن تحسين اللفظ وسحر البيان اللذين كان يعتبرهما علماء عصر الدهلوي اعتبارا شديدا ويتكلفون تكلفا تحديا. فيقول السيد مناظر أحسن الكيلاني ما معناه – قد ساد الجمود والتعطل على عقول العلماء والفضلاء لا في الهند فقط بل في جميع العالم الإسلامي منذ زمن طويل. وخلال تلك القرون الماضية لم يلد أي مصنف يذكر وبالرغم من وجود الذوق والرغبة الشديدة في الأدب والإنشاء كلهم كانوا يعملون بالألفاظ ويتحملون فيها. ولونظرنا في مذكرات علماء الإسلام التي أعدت في العصر الراهن لم نجد غير القوافي والألفاظ

---

[١] أبو محمد عبد الحق حقاني: نعمة الله السابغة، كتب خانه رحيمية، ديوبند، سهارنفور، ٢٩/١

المسجعة سطرا واحدا في ترجمتهم وتاريخهم. هكذا كان الحال في كتابات جميع العلوم والفنون الأخرى.[1]

٦) ومن ميزاته أيضا أنه لا يطيل الكلام إطالة مملة. ولا يقصره تقصيرا مخلا. بل يسلك مسلك "خير الكلام ما قل ودل". فيقتصر في المقال. كأنه يؤيد أشد التأييد للتوازن والإعتدال. وهذه الميزة الخاصة تتجلى في أسلوبه.

غايته القصوى

وكان الدهلوي يعرف حق المعرفة أنه لم يأخذ القلم لإظهار كمالات اللسان ولايقاع الناس في الحيرة والدهشة بقوة البيان. بل غايته القصوى هي تنوير الأذهان والقلوب بأضواء كلام الله عزوجل وأحاديث الرسول صلعم. فقد بيـّن الغاية النبيلة مميزا نفسه عن اللغويين الماهرين والأدباء المتشدقين في آخر أبواب هذا الكتاب الجليل. وقد دعم مقاله باحاديث الرسول صلعم فيقول:

اعلم أن التنطع والتشدق والتقعر في الكلام والإكثار من الشعر والمزاح وتزجية الوقت بأسمار ونحوها إحدى المسليات التي تشغل عن الدين والدنيا. وما يقع به التفاخر والمراءاة. فكان حالها كحال عادات العجم فكرهها النبي صلعم وبيـّن ما في ذلك من الآفات. ورخص فيما لا يتحقق فيه معنى الكراهة. وإن اشتبه بادي الرأي وقال الرسول صلعم هلك المتنطعون. قالها ثلاثا. وقال الحياء

---

[1] المصدر السابق، ص: ٢٣٤.

والعي شعبتان من الإيمان. والبداء والبيان شعبتان من النفاق.[1]

ومن خلال تبويب الدهلوي للحجة

كوّن الدهلوي القسم الأول من كتابه فى سبعة مباحث. تناول فيها مواضيع متعددة عن خلق الإنسان والقوى التي تمتزج في نفسه من حيث دوافع الخير والشر وسر التكليف له ومستقبله في اليوم الآخر وما إليها.

وفي هذه الأبواب المستفيضة تتابعت نظراته العميقة في بيان الحكمة و المصالح المرعية التي أرادها الشارع لعباده لتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية. والمتأمل في البحث الأول - مثلا - يرى حديثه عن أسباب التكليف والمجازاة للإنسان. وقد توسع في أبوابه بشكل منطقي مستدلا بنصوص من القرآن اوالسنة كما جاء في الباب الأول الذي التزم ترتيب النتائج الى مقدماتها فيقول: اعلم أن لله تعالى بالنسبة لإيجاد العالم ثلاث صفات مترتبة:

الأولى : الإبداع وهو إيجاد شيء لا من شيء فيخرج الشيء من كتم العدم بغير مادة واستشهد لهذا بقول الرسول صلعم 'كان الله ولم يكن شيء قبله'

الثانية : الخلق وهو إيجاد الشيء من شيء كما خلق آدم من التراب كما قال تعالى

---

[1] حجة الله البالغة: ٢/٥٤٦.

"إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب"[1]. ووصف بهذه الأشياء بأنها ذات أجناس وأنواع ولكل منهما خواص. وأنها لا تنفك عما جعلت لها من الخصوصية فكما أنه تعالى خلق الإنسان من تراب و خلق الجان من النار،كما جاء في القرآن "وخلق الجانّ من مّارج مّن نّار"[2].

الثالثة : التدبير وهو تصريف شؤون المخلوقات. وفيه إشارة إلى موقع الحكمة التي تساير موافقة حوادثها للنظام الذي ترتضيه حكمته التي تفضي إلى المصلحة التي اقتضاها جوده كما ينزل من السحاب مطرا ويخرج به نبات الأرض ليأكل منه الناس والأنعام.[3]

بعض الحكم التي في الحجة

قد أورد الدهلوي حكما كثيرة في الحجة. فالنّظر إلى بعض منها يوردنا المعرفة عن معلومات الدهلوي. والحكمة الواحدة هي آنفة الذكر يعني ما في إنزال المطر. وقد نبه إلى حكم أخرى التي قد تكون في ظاهرها لا تواكب نظام الخصوصيات لأجناسها وأنواعها. وسمى هذه الحكمة بحسب آثارها بما يتحقق بها من المصالح بعد أن جعل لكل سبب أثرا ولكل مقدمة نتيجة ولكل موجود خصوصية. فقال:

"والشيء إذا اعتبر بسببه المقتضى لوجوده كان حسنا لا محالة كالقطع حسن

---

[1] سورة آل عمران: ٥٩

[2] سورة الرحمن: ١٥

[3] حجة الله البالغة: ١/١٢،١١.

من حيث أنه يقتضيه جوهر الحديد"[1] ثم يستدرك لهذه الخاصة إن كانت ذات أثر يلحق ضررا – فيري فيها ظاهرة جديدة – وإن كانت حكمة الله تبدو وفي تدبيرهذه الخصوصية بتحويلها من طبيعتها إلى ما يخالفها لتتحقق المصلحة بها باعتبار الآثار غير المحمودة او عدم حدوث شيء آثاره مطلوبة وإذا تهيأت الأسباب بفضل خصوصية الشيء حسب نظامه المناسب في خلقه – إقتضت رحمة الله بعباده ولطفه بهم وعموم قدرته على الكل وشمول علمه بالكل أن يتصرف في تلك القوى والأمور الحاملة لها بالقبض والبسط والإحالة والإلهام حتى تفضي تلك الجملة إلى الأمر المطلوب.[2]

وقد صور هذه الحكم الالهية التي وصفها بالسمات الأربعة السابقة بأمثلة فقال: أما القبض فمثاله ما ورد في الحديث يعني أن الدجال يريد أن يقتل العبد المؤمن في المرة الثانية فلا يقدره الله تعالى عليه مع صحة داعية القتل وسلامة أدواته. وأما البسط فمثاله أن الله أقدر بعض المخلصين من عباده في الجهاد [هنا يذكر واقعة خيبر حينما غزا علي(ر) بباب الحصن] على ما لا يتصوره العقل من مثل تلك الأبدان ولا من أضعافها. وأما الإحالة فمثالها جعل النار هواء طيبا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام. وأما الإلهام فمثاله قصة خرق السفينة وإقامة الجدار وقتل الغلام وإنزال الكتب والشرائع على الأنبياء عليهم الصلاة

---

[1] المصدر السابق : ١٢

[2] عبد الرزاق قاسم: منهج الدهلوي بين المصالح والحكمة الشرعية(مقال)، آداب الرافدين، ٢٤ شعبان ١٣٩٧، ص:٥١٤.

والسلام....[1]

وقد يلاحظ بأن الحجة تسترسل في سرد وبيان أنواع الحكمة الشرعية في مواضيع تناولت حياة الإنسان عموما منذ نشأته وتعامله مع الناس في شتى سلوكه وتصرفاته بأسلوب منطقي واستنتاجات عقلية كما يلاحظ أن مؤلفه الدهلوي يستعين كثيرا بالمسائل الكلامية الإعتقادية تحليلا وتدليلا على وجهة نظره في تجليه الحكمة وإيضاحها كما بيـــن ذلك في الأمثلة السابقة.

ومن نماذج بحوثه في العلاقات الإنسانية المتعاطفة ما صوره من الحكمة في الروابط الإجتماعية والأحوال الشخصية ما بين الزوج وزوجته وأولاده وحسن الصحبة. فذكر منها عشرات المصالح والحكم. ومنها ما جاء في باب تدبير المنزل فقال: وأوجبت مزاحمات الرجل على النساء وغيرتهم عليهن أن لا يصلح امرهم إلا بتصحيح اختصاص الرجل بزوجته على رؤوس الأشهاد وأوجبت رغبة الرجل في المرأة وكرامتها على وليها وذبة عنها أن يكون مهر وخطبة وتصدٍ من الولي. وكان لو فتحت رغبة الأولياء في المحارم لأفضي ذلك إلى ضرر عظيم عليها من عضلها عمن ترغب فيه وألا يكون لها من يطالب عنها بحقوق الزوجية مع شدة احتياجها إلى ذلك....[2]

والمتأمل في الحكم التي سردها الدهلوي عن العلاقات الشخصية تتضح له

---

[1] حجة الله البالغة: ١/١٣، ١٢.

[2] المصدر السابق: ١/٤١.

نظراته في إبراز الجانب الإجتماعي في صورته المتماسكة الرصينة التي توفر السهادة للإنسان وتحفظ القيم الكريمة. أما المعاملات والروابط الإنسانية العامة فإنه يتحدث عن جانب منها ويظهر مواطن الحكمة من أحكامها فيقول في باب فن المعاملات عارضا لبعض الظواهر الإقتصادية والمالية:

"الحكمة الباحثة عن كيفية إقامة المبادلات والمعاونات والإكساب..."[1].

ومختصر ما ذكر في هذا الباب هو لما ازدحمت الحاجات وطلب الإتقان فيها ولما كان كثير من الناس يرغب في شيء وعن شيء فلا يجد من يعاملها في تلك الحالة اضطروا الى تقدمة وتهيئة فصارت المعاملة بها أمرا مسلما عندهم.

فيلاحظ من الموازنة بين النصين التقارب والتأثر لدى الدهلوي بالأقدمين من العلماء في كثير من الحكم الشرعية والتي وصفها بأنها معتبرة عند الشارع ورأى حسبما اقتضاه عصره أن يفيض القول فيها ويفصل في تأصيلها أكثر من سواه وبخاصة أن كتابه مصنف فيها. وتلاحظ في موضوع سياسة المدنية والحديث عن التجارة والزراعة وأهل الصناعة نظرات من الحكمة عنده في إنعاش الحياة الإقتصادية والحضارة اوغيرهما.

ولم يقف الدهلوي عند بيان الحكمة او المصلحة المرعية من الأحكام التعبدية موقفا يلتزم فيه جانب النقد فحسب، بل أنه رأى كما قدمنا أن حكمتها تبدو لكثير ممن أوتوا المعرفة وحسن البصيرة. ولذلك وجدناه يحلل ويفكر في إظهار

---

[1] المصدر السابق : ٤٣/١.

الحكمة وإيضاحها. ومن ذلك ما ذكره في باب أسرار الحج. فقال: واعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعا عظيما من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله متضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا. فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة وهو قوله صلعم: "ما رؤى الشيطان يوما هو فيه اصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة"

فمن هذا المعنى لفريضة الحج ينطلق في استنتاج الحكمة التي يرى فيها الباعث على تشريعها. فهو يفسر هذه الظواهر من المناسك والشعائر التعبدية في مهبط الوحي وسيلة للتذكر وتربية للأنفس وتعطفا لهم لإدراك عظمة مشرع هذه الفريضة بصفاء السرائر واجتماع الناطقين بوحدة الإنتساب إليه تعلو الهمم وتتحقق مصالح الأمة التي بها يثابون من خالقهم بالرحمة والرضوان بعد أن استشعروا كل معالم نهضتهم واستجمعوا طاقاتهم لكل خير وصلاح.

وقد أورد عبد الرزاق قاسم سبع ملامح التي وجدها في منهج الدهلوي. هذا ما يأتي:-

١) تلاحظ الجدة والوضوح في بيان الحكمة او المصلحة المرعية عنده في الأحكام بشكل مستفيض ومنطقي.

٢) لم يستثن أحكام العبادات في منهجه عند بيان الحكمة بل التمس فيها أيضا

معاني عقلية تساير واقع الحياة بتفصيل يناجي الأرواح ويهدف إلى الإقناع.

٣) صنف الحكمة إلى أنواع من حيث صدورها او من جانب وضوحها اوخفائها.

٤) عني بمناقشة الآراء لاستخلاص الحكمة وإثبات المصلحة الموافقة لمطالب الحياة السعيدة.

٥) أفاض القول في بحث الصور الروحية التي يعايشها الإنسان ابتغاء تحقيق الإقناع النفسي والإطمئنان الى معاني الإمان بالبعث بعد الموت.

٦) اتخذ من وسيلة البحث الروحي عاملا دافعا يحث النفس الإنسانية على السلوك الحسن والإخلاص في العمل وعلق الجزاء او الثواب على الأعمال بأن وصفهما بأنهما يكونان حسب نظام لا يتحول عن أسبابهما.

٧) رد بعض الفقهاء الذين رجحوا القياس على الحديث الصحيح.[1]

اسلوبه في الحجة

أسلوب هذا الكتاب مغاير جدا. قد نبه الدهلوي هذا الأمر في المقدمة نفسها. وبيـــن أن تأليفه مؤسس على الكتاب والسنة بالوضوح على خصوصية علوم الحديث. ويمكننا أن نتوجه إليه:-

---

[1] عبد الرزاق قاسم: منهج الدهلوي بين المصالح والحكمة الشرعية(مقال)، آداب الرافدين، ٢٤ شعبان ١٣٩٧،ص: ٤٩٩،٥٠٠.

وفي القسم الأول يرى الدهلوي أن أسرار الشرئع ترجع إلى أصلين يعني مبحث البر والإثم ومبحث السياسات الملية. البر والإثم لا تكتنه حقيقتهما إلا بعد أن عرف قبلهما مباحث المجازاة وطرق الإنتفاعات والسعادة النوعية. وأما القسم الآخر من الكتاب فقد اختص بشرح أسرار الأحاديث من أبواب الإيمان وأبواب العلم وأبواب العبادات وأبواب الاحسان وأبواب المعاملات أبواب تدبير المنازل وأبواب سياسة المدن وأبواب آداب المعيشة وغيرهذه من الأبواب كما تقدم ذكره.

يبحث الإمام في القسم الأول من الكتاب أسباب التكليف والمجازاة وكيفية المجازة في الحياة وبعد الممات وكيفية استنباط طرق الإنتفاع ثم حقيقة السعادة والسياحات الملية واستنباط الشرائع من حديث النبي صلعم وبيان أسرار ما جاء عنه صلوات الله عليه تفصيلا.

أما القسم الثاني فيبحث فيه حكمة التشريع في العبادات كلها والمقامات والأحوال جميعها وفقه المعاملات والخلافة والقضاء والجهاد والفتن وأشراط الساعة. وبيـــن في الباب الأول من القسم الأول عن وحدة الوجود ووحدة الشهود بلا توضيح إلى اسمهما.

وحدة الوجود ووحدة الشهود

جاء في فلسفة الإمام مبحث وحدة الوجود ووحدة الشهود. وهو مما يعسر فهمه على أكثر عقول أجلة العلماء من المتكلمين والفلاسفة. وهما لفظتان تطلقان في موضعين. فتارة تستعملان في مباحث السير إلى الله عزوجل. ومعنى وحدة

الوجود ههنا الإستغراق في معرفة الحقيقة الجامعة التي تعين العالم فيها بحيث يسقط عنه أحكام التفرقة والتمايز التي معرفة الخير والشر مبنية عليها. وهذا مقام يحل فيه بعض السالكين حتى يخلصه الله تعالى منه.

ومعنى وحدة الشهود هو الجمع بين أحكام الجمع والتفرقة. فيعلم أن الأشياء واحدة بوجه من الوجوه وكثيرة مبائنة بوجه آخر. وهذا المقام أتم وأطول رفع من الأول. وليس معتقد ولي الله بوحدة الوجود على نهج ما اعتقده الشيخ الأكبر ولا بوحدة الوجود والشهود كما اختاره الإمام الرباني بل مسلك الشيخ بين الطريقتين.[1]

كان رحمه الله نشأ على مذهب الحنفية في الفروع والمعتقد وعلى مداق العارف بالله الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي المعروف والإمام الرباني في القول بالتوحيد الشهودي. إنه يعتقد في الامام الرباني. والشيخ الرباني ما انكر وحدة الوجود التي أقرّ بها الشيخ الاكبر كإنكار علماء الظاهر بل أثبت وحدة الشهود مقاما أعلى من وحدة الوجود بعد إقراره مقام وحدة الوجود. كما نص عليه العارف بالله الهادي إلى الله مرزا مظهر الشهيد المتوفى سنة ١١٩٥ هـ/ ١٧٨٣م.

ما جاء عن الحاجة الى الخليفة وإثبات خلافة الأنبياء (ع)

ويثبت الدهلوي في أبواب الحجة بأنه ينبغي أن يكون الخلفاء في كل زمان. هؤلاء الخلفاء هم خلفاء الأنبياء والمرسلين. هم يعملون أعمال الأنبياء. والفرق

---

[1] الشاه ولي الله الدهلوي: لمعات.

بينهم ليس لهؤلاء الخلفاء معجزات ولكن لهم كرامات من الله. هم يبلغون أوامرالله إلى تابعيهم خاصة وإلى الناس عامة. هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فحصول الخلافة لهم ليس بمجرد الأمور. بل يحصلون هذه الخلافة بالعبادات دهرا على دهر. فيصفون أنفسهم من كل الأقذار. فيستطيعون أن يروا الأمور من الملأ الأعلى وعالم المثال. فيعلمون أسرار الشريعة وبهذه الأشياء يزكون أنفسهم وأنفس غيرهم من عامة الناس وخاصتهم.

يقول أبو الحسن على الندوي: زد على ذلك (على أبواب تدبير المنزل والخلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصحبة التي تتعلق بالأخلاق والإجتماع والمدينة والإقتصاد) أن الإمام الدهلوي قدم فيه نظاما مرتبا منقحا للإحسان والتزكية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه والعمل به أن يبلغ أعلى مدارج الرقى والكمال ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات. وقد امتد هذا الباب من الكتاب على الصفحات من ٦٦ إلى ١٠١. وقد بحث فيه الإمام الدهلوي عن تلك الطرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصحيحة واكتفى بمجرد التأكيد على روح الإحتساب والإستحضار والنية والعزيمة والكيفيات الباطنية القلبية والإهتمام بها، واقترح علاج الأمراض والعلل الروحية بتلك الطرق المشروعية والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صح نقلها كما بيــن طرق العلاج للأخلاق المذمومة الرذيلة وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنصوص الثابتة في

الكتاب والسنة.[1]

وقد أورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية المأثورة وشرح طريق الدعاء المقبول وكيفيته وشروطه وآدابه. وقد أورد في آخر هذا الباب أحاديث منتقاة تتعلق بالتحلي بالأخلاق الفاضلة وأداء حقوق العباد وحسن الصحبة والجوار التي يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجات التزكية والإحسان. ثم تناول بيان تلك الأحوال والمقامات التي تحصل للسالك نتيجة التزكية والإحسان. كما أنها تكون نتيجة النور في الباطن وصحوة القلب وصلاحه وزكاء النفس وطهارتها ومرضات الله وتأييد الملأ الأعلى واستبشارهم.[2]

الجـــــهاد

ويشتمل هذا الكتاب على باب مستقل حول الجهاد. وهذا الموضوع قد يبحث عنه كثير من الناس خاصة في العصر المعاصر بعد حادثة ١١/سبتمبر. قد بدأ الدهلوي هذا الباب بهذه الكلمات المثيرة المنبهة التي لا يقولها إلا عارف خبير. إنه يقول:-

"اعلم أن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد"[3]

ثم شرح ذلك وبينه وأثبته بالعقل والنقل. ثم ذكر أسباب فضل الجهاد

---

[1] أبو الحسن علي الندوي: الإمام الدهلوي (رجال الفكر والدعوة في الإسلام/الجزء الرابع)، دارالقلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٦م، ص: ١٩٠،١٨٩.

[2] المصدر السابق : ١٩١.

[3] حجة الله البالغة، ص: ١/١٧٠.

وأصوله وضوابطه. وأورد فيه كثيرا من الأحاديث النبوية وبين سبب الفضائل. وإذا وجب الجهاد فالفرار عنه حرام على رأيه.

الفصل الثالث: الأخلاقيات في أعمال الشاه ولي الله الدهلوي

يرى في أعمال الدهلوي نوعان للأخلاق. وهما الفلسفية والإسلامية. إنه يصور في أعماله خاصة في كتابه "حجة الله البالغة" أنواع الأخلاق. وبيـّن الدهلوي في الجزء الأول من هذا الكتاب سبعة مباحث والأربعة منها تبحث عن الأخلاقيات يعني مبحث الإرتفاقات ومبحث السعادة ومبحث البر والإثم ومبحث السياسات الملية. وفي نظره الأخلاق ترى في الإنسان فقط وكذلك نفع الأخلاق يحصل المجتمع كله. يقول الدهلوي: "الإنسان من بينها مدني الطبع لا يتعيش إلا بتعاون من بني نوعه فإنه لا يتعدي الحشيش النابت بنفسه ولا بالفواكه نيئة ولا يتدفأ بالوبر إلى غير ذلك مما شرحنا من قبل، ومن حقه أن يلهم تدبير المدن مع تدبير المنازل وآداب المعاش غير أن سائر الأنواع تلهم عند الإحتياج الهاما جبليا والإنسان لم يلهم إلهاما جبليا إلا في حصة قليلة من علوم التعيش كمص الثدي عند الإرتضاع والسعال عند البحة وفتح الجفون عند إرادة الرؤية ونحو ذلك." يفهم من هذا القول أن المجتمع ينتفع من أخلاق أفراد المجتمع.

وقال الإمام الدهلوي في كتابه "البدور البازغة"

فهذا تحقيق الملكات الرواسخ. وكل ملكة راسخة تسمى بالخلق، والأخلاق كلها تكون جيدة إذا كانت النفس الناطقة صلبة صافية متصلة في نفسها فإنها إذا كانت كذلك استتبعت في البدن مزاجا شبيها بها ونسمة شبيهة بها وقلبا وكبدا ودمانا شبيها بها، وأخلاقا صلبة صافية شبية بها، فلأمر متماثل متشابه بعضه ببعض، وإذا أعملت الفكر في الفحص عن حقائق الأخلاق الفاضلة وجدتها سبعة: الحكمة والعفة والسماحة والشجاعة والفصاحة والديانة والسمت الصالح.[1]

وانقسم الدهلوي الأخلاق الفاضلة إلى سبعة اقسام ويقول بعد تفصيل كل واحدٍ من هذه السبعة.

"فأثر هذا الخلق في الصورتين: إحداهما تشابه الأخلاق والأفاعيل والملابسات من الثوب والزي بعضها ببعض، فمن ناسبت أفاعيله وملابساته بالسودد لا يزال كل جنس من تلك الأفعال فيه بلا تفاوت ومن ناسب أفاعليه بالصغار يكون كل فعل منه مناسبا للصغار.

وثانيهما تشابه جزئيات فعل واحد، فكل فرد يناسب الفرد الآخر مطردا، ولو امعنت في الإستقراء وقعت على رجل قد يظهر في صورة السودد وبجبروت عظيم وزي صالح ووقار سماحة وشجاعة. ثم يظهر في وقت آخر في صورة أريش الشح وضيق نفس وجبن وصغار وهوان وزي غير صالح لمثله، قد يرضى

---

[1] الامام الدهلوي: البدور البازغة، ص: ٤٧

ثم عما قريب يسخط ويتخذ سمتا، ثم عما قريب يدعه ويتخذ سمتا مبائنا لـــه. وذلك لعدم صحة تشابه قوام القلب وأحكامه. فبعض الأحكام أمتن من بعض، فلو تشابه القوام لم يصدر منه أفعال متبائنة وعلى رجل شجاع في المرتبة القصوى من ا لشجاعة وهو بخيل غاية البخل او وقح غاية الوقاحة او أعجم اللسان.

ومن هذا الخلق ينشعب الحلم والحياء والصبر على المكاره والدوام على الأعمال والأخلاق الحسنة، ويذهب منه عروق في أعمال الظرافة فينتخب من اللباس لباسا مناسبا لمثله، ومن الجلوس والمشي هيئة مناسبة لمثله."[1]

يختتم كلامه بإيراد قول عن فاقد الأخلاق الفاضلة. يعني أن الفاقد لتلك الأخلاق الفاضلة لا يخلو من أن يكون تامّ المزاج وإنما صده عن تكونها قلة الوقوع في مظانها او يكون ناقص المزاج بإزاء نقصان المادة التي قبلت الصورة الشخصية.

والأول ينفعه ملازمة أصحاب الأخلاق الكاملة على صفة الإستحسان والإصغاء إلى حكايتهم، والجزم بأنها سعادة المرء في العاجل والآجل والثاني لا ينفعه شيء، نعم إذا توجه إلى الله وسار اليه غشيته الرحمة وتبدلت الطبيعة الإنسانية فيكون حينئذ جابرا لنقصانها بما هو أحسن الأخلاق المعاشية.

وكذلك أنه كتب بالفارسية كتابا "المقالة الوضيئة في النصيحة" عرف هذه

---

[1] المصدر السابق : ٥٩-٦٠

الرسالة باسم "وصيت نامه" وهي تشتمل كما يدل اسمها على جملة صالحة من النصائح والتوجيهات لتلاميذه ولكل من يمت إليه بصلة. وكذا يمكن اعتبار كتابه المشهور "البدور البازغة" امتدادا لحجة الله البالغة موضوعات ومنهجا. وهو عمل موسوعي يتناول شتى موضوعات الدين والتصوف وفلسفتهما وأيضاً "التفهيمات الإلهية" بالعربية والفارسية. وهي تجمع الخطب القصار على موضوعات مختلفة متصلة بالدين والتصوف. كل منها بعنوان 'التفهيم'.

وهذه كلها كتب التي تصور ركائز اساسية من فكره ومبادئ جذرية من فلسفته. وبقي هناك عدد من الكتب المهمة وبعض الرسائل. ويحاول العلماء المتأخرون ورجال الفكر وكبار أهل العلم والمعرفة تقييم علومه ومعارفه وتنقيحها بقدر ما تيسر لهم من السعي والجهد.

بعض وجوه الأخلاقيات في الحجة

إن من مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل على ابواب المعيشة وآداب الصحبة التي تتعلق بالأخلاق والإجتماع والمدينة والاقتصاد. ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامة الكتب الفقهية والكلامية. هنا نريد أن نورد بعض وجوه الأخلاقيات التي وردت في الحجة. وإلى هذا:-

(A) إن فطرة الانسان الطبيعية على ثلاثة أقسام. وهي

١. عفة: وهي أن لا يخضع لهواء النفوس والشهوة وهي نوعان - فطري

وكسبي. ويعتبرالله أصحابها أهل الخير والخوف.

٢. تفرس: وهو الذي يستطيع أصحابه أن يفهم معنى القرآن وأسرار الشريعة وكنه الله تعالى.

٣. سكينة: هي من الله هبة. فأصحابها يستطيعون أن يقوموا بإلاستقامة على عبادة الله تعالى.

(B) إن الإنسان على الصفات النفسانية على قسمين. وهما:-

١. الذين لهم البهيمة الشديدة الصفيقة، يعني يبلغ فيه الصفات الحيوانية.

٢. الذين لهم البهيمة الضعيفة المهلهلة مثل الظبي. فيبلغ فيه الصفات الحيوانية الضعيفة.

(C) إن الإنسان فيه الصفات الملكية. هذا أيضا على قسمين.

١. الذين في الملأ الأعلى: هم يصبغون بأسماء الله تعالى وصفاته. وهم يرون الأمور من الأقوال الإلهية.

٢. الذين في الملأ السافل: هم الذين يمكن أن يزل أقدامهم من الدين الحنيف. يجب أن يكونوا بين الخوف والرجاء.

(D) وعلى هذين الأخيرين قسم الدهلوي الناس إلى أربعة أقسام.

i. الذين يبلغ فيهم الصفات الملكية والحيوانية.

ii. الذين يبلغ فيهم الصفات الحيوانية ويقل فيهم الصفات الملكية.

iii. الذين يبلغ فيهم الصفات الملكية ويقل فيهم الصفات الحيوانية.

iv. الذين يقل فيهم هاتان الصفتان.

(E) الثالثة منهم الصوفية البارزون الممتازون. قسمهم الدهلوي أيضا إلى أربعة أقسام.

١) المفهمون:- هم أعلى طبقات النفس. وملكيتهم في غاية العلو. ويمكن لهم أن ينبعثوا إلى إقامة نظام مطلوب بداعية حقانية ويترشح عليهم من الملأ الأعلى علوم وأحوال الـــهية.

٢) السابقون:- وهم جنسان، جنس أصحاب اصطلاح وعلو كان استعدادهم كاستعداد المفهمين في تلقي تلك الكمالات. وجنس أصحاب تجاذب وعلو ساقهم سائق التوفيق إلى رياضات وتوجيهات قهرت بهيميتهم فآتاهم الحق كمالا عمليا وصاروا على بصيرة. ويجمع هذين السابقين أمران. أحدهما أنهم يستفرغون طاقاتهم في التوجه إلى الله والتقرب منه. وثانيهما أن جبلتهم قوية فتمثل الملكات المطلوبة عندهم على وجهها من غير نظر إلى أشباح لها. ومنهم -

(١) المفردون (٢) الصديقون (٣) الشهداء (٤) الراسخون في العلم (٥) عباد الرحمان (٦) الزهاد (٧) المستعدون لخلافة الأنبياء(ع) (٨)أصحاب

الخلق الحسن (٩) المشتبهون بالملائكة والمخالطون بهم.

٣) أصحاب اليمين:- وهم أجناس. جنس نفوسهم قريبة المأخذ من السابقين وجنس أصحاب التجاذب وجنس أهل الإصطلاح ضعيفة الملكية جدا.

٤) أصحاب الأعراف:- هم جنسان (١) قوم صحت امزجتهم وزكت فطرتهم ولم تبلغهم الدعوة الإسلامية أصلا او بلغتهم ولكن بنحو لا تقوم به الحجة ولا تزول به الشبهة. (٢) قوم نقصت عقولهم كأكثر الصبيان والمعتوهين والفلاحين والأرقاء.[1]

الحلم من الأخلاق

وفي كتاب "رسالة في الحلم" أفرد مصنفه "شارل بلا" بابا باسم "تشريح الحلم ومنـــزلته من الأخلاق الأساسية". وبين فيه معانى الحلم المختلفة وفضائله. وقال إن الحلم هو أساس كل مكارم الأخلاق. وأنه روى قول عبد العزيز محمد الأهيدب الذي قاله في كتابه "حكم وأدب من مآثر العرب": الحلم هو سكون النفس عند دواعى الغضب مع ترك الإنتقام، وهو من أشرف الأخلاق وأكرمها وأعلى مراتب الكمال وأعظمها يبلغ صاحبه ذروة الشرف والمجد ويكسب صاحبه جميل الشكر والحمد، به يصون الإنسان عرضه ولا ينال منه السفيه غرضه، يعصم النفس من مواقع الندم ولذا قيل "ما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ومن عفو إلى

---

[1] حجة الله البالغة : ١/١١٧-١١٥.

قدرة."[1]

ولكن الأوصاف التي تقدمت هي ما لا بد من وجودها لتتم مكارم الأخلاق. وكل من الأوصاف واجب أن يكون ليوجد وصف آخر. هنا واجب أن يتذكر قول الجاحظ الذي هو أول من حاول أن يحلل الحلم تحليلا جامعا مانعا وأن يقول تعريفا جامعا ومانعا. فقال: "وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل: فالحلم هو الإسم الجامع لكل فضل وسلطان العقل القامع للهوى، فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشر وإسقاط طائر الخرف بأحق بهذا الإسم ولا أولى بهذا الإسم من قمع فرط الرضى وغلبة الشهوات والمنع من سوء الفرح والبطر ومن سوء الجزع والهلم وسرعة الحمد والذم وسوء الطبع والجشع وسوء منازهة الفرصة وفرط الحرص على الطلبة وشدة الحنين والرقة وكثرة الشكوى والأسف وقرب وقت الرضى من وقت السخط ووقت السخط من وقت الرضى ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف وفي غير نفع ولا جدوي." وعلاوة على الحلم للأخلاق أمور كثيرة من الحقائق. هلا ننظر إلى بعض منها كما بيـّن الدهلوي.

حقائق الأخلاق الفاضلة كما بينها الدهلوي

حقائق الأخلاق الفاضلة سبعة. هلا نبحث عنها من بيانات الدهلوي.[2]

---

[1] حكم وأدب من مآثر العرب: بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[2] الشاه ولي الله الدهلوي: البدور البازغة، ص. ٤٧ بتلخيص.

(١) الحكمة: وهي ذكاوة القلب في الجرم بالعلوم التي التقطها من قبل البداهة او النظر او من قبل النور الإلهي المنصوب في الناسوت المسمى بالشرع وفي حيازتها واختزانها واعمالها. وليست الحكمة التي نقصد بيانها عندنا ما اختص به اصحاب الفلسفة من دقيق الأنظار ولا ما اختص به الصوفية ومن ضاهاهم من الوجدان العميق من قبل التجلى المعتمد على نفوسهم او من قبل أعيانهم بل ما يهتدي به أصحاب الأمزجة السليمة إلى معايشهم وإلى علومهم التي من قبل نسمتهم. وإنما الحكمة حال من الأحوال، وهي تتلو القلب وليست انطباع الصورة العلمية فقط ولا جزيرة أي إنشاء احتمالات بعيدة وتدقيقات لا طائل تحتها.

(٢) العفة: وهي تجبر القلب على اللّذاّت والشّهوات التي تنبعث بسريان المنى في المدن وإضمار دخلاء الدماغ مودته فينفذ فيها حكمه على سبيل الإستبداد. والعفيف من الرجال رجل عظيم الباه قوي المحبة للنساء والعفيفة من النساء امرأة حنونة على ولدها عظيم المحبة لزوجها خصوصاً.

(٣) السماحة: وهي تيه القلب وكبره على كل ضيق وطيش وتجبره على كل مطلب دني. فيسترق الضعفاء ويتملك رقابهم. أليس أن ذا المال القليل والجاه المموه يسترق الضعفاء.

(٤) الشجاعة: وهي توثق القلب واشتداده عند مقاومة المصائب الداهمة والنوائب الدامغة أن أمر بمقاومتها الرأي الكلي والمصلحة البالغة بحيث لا يعجز عن مكابدة

شدة ولا يقعد عن مطاولة مدة. ذلك أن الرجل قد يعلم بمكان نفع او بانتفاء ضرر كابدٍ ووصل بعد المكابدة إلى مطلوبه كالرياسة او المال الحزيل او كالأجر الجليل أجلا او كإنشاء دين من الله تعالى او تمهيد الملك على وجه تقتضيه الحكمة او تخليص نفسه من قتل او سلب او عار او غير ذلك.

(٥) العزم: وهو خلق وزانه مع القوى العملية وزان الإذعان مع القوى العلمية فالرجل قد يقع عليه صورة فعل ثم صورة فعل آخر، فيشتبه على القلب القضاء ولو كانت الصورة الأولى وقعت على عزم لم يتردد، ولم يضطرب القلب في القضاء.

(٦) الفصاحة: وهي تحبز القلب على القوى الإدراكية حين ما يوعى إلى اللسان، وعلى اللسان عندما تتلقى من القوى الإدراكية فينتظم بصحتها وانقيادها الكلام ويكون بليغا.

(٧) السمت الصالح: وهي صحة قوام القلب في الحكم على العاملات والعاقلات من القوى فلا يزعجه ما أحسن من وهم او خيال او تأثر خلط ومنى عما جرى عادته عليه، ولا يضطرب بعض أفاعليه عن بعض فيناسب بعضها السودد والكبر والجبروت وبعضها الصغار والهوان والذلة.

إلى أبواب مبحث السعادة

أورد الدهلوي مبحثا واحدا لبيان "الأخلاقيات" كما تقدم ذكره. وفيه سبعة أبواب وهي :-

١. باب حقيقة السعادة

٢. باب اختلاف الناس في السعادة

٣. باب توزع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة

٤. باب الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية

٥. باب طريق إكتساب هذه الخصال وتكميل ناقصها ورد فائتها

٦. باب الحجب المانعة عن ظهور الفطرة

٧. باب طريق رفع هذه الحجب

هلا ننظر إلي بيانها نظرة مختلسة. يبدأ الدهلوي هذا البحث بإتيان توضيح كمالية الإنسان. فقال: "اعلم أن للإنسان كمالا تقتضيه الصورة النوعية وكمالا يقتضيه موضوع النوع من الجنس القريب والبعيد وسعادته التي يضره فقدها ويقصدها أهل العقول المستقيمة قصدا مؤكدا هو الأول".[١] وبعد هذا يبين سببه بأن بعض الناس يمدح طول الأجسام وعظم القامة. فيشير الدهلوي إلى طول الجبال فيسأل هل للجبال أي كمال؟ لا. فيقول إنه ليست السعادة معتمدة على الطول او على الصفات مثل الطول. ولكن يقول: "وصفات يختص بها الإنسان كالأخلاق المهذبة والإرتفاقات الصالحة والصنائع الرفيعة والجاه العظيم. فبادئ الرأي أنها

[١] الشاه ولي الله الدهلوي: الحجة، ص: ٥٠/١

سعادة الإنسان. ولذلك ترى كل أمة من أمم الناس يستحب أتمها عقلا وأسدها رأيا أن يكتسب هذه ويجعل ما سواها كأنها ليست صفات مدح".[1]

ويقول بعد ذلك أن الأمور التي تشتبك بالسعادة الحقيقية على قسمين. الأول من باب ظهور فيض النفس النطقية في المعاش بحكم الجبلة ويُظهر الدهلوي أن الأخلاق لا تظهر إلا عند مزاحمات من بني النوع. والثاني هيئة إذعان البهيمية للملكية. وهذا القسم يسمى بالعبادات والرياضات – العبادات باعتبار اقتضاء الملكية، والرياضات باعتبار اقتضاء البهيمية. ومطلوب الإنسان أن يحصل السعادة الحقيقية. وأن السعادة لا تقتنص إلا بالعبادات. فالعبادات هي المطلوبة الأولية والآخرية من خلق الله تعالى الناس لمّا قال:"وما خلقت الجنّ والإنْس إلا ليعبدون"[2]. ولذلك تنادي المصلحة الكلية أفراد الإنسان من كوة الصورة النوعية وتأمرها أمرا شديدا أن تكون إصلاح الصفات التي هي كمال ثان – يعني الإرتفاقات الصالحة والصنائع العجيبة ونحوها– بقدر الضرورة وأن تجعل غاية همتها ومطمح بصرها تهذيب النفس وتحليتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من الملأ الأعلى مستعدة لنزول أكوان الجبروت والملكوت عليها.

وفي الباب الثاني من هذا البحث يُظهر الدهلوي شدة الحاجة إلى الأنبياء ووجوب إتباع سنتهم والإشتغال بأحاديثهم. ولذلك أورد أولا أصناف الناس في

---

[1] المصدر السابق : ٥٠/١

[2] الشاه ولي الله الدهلوي : الحجة، ص : ٥٦/٥١

مجال الشجاعة وسائر الأخلاق الذي لا يرجى له حصولها أبدا وصنف فاقدها الذي يرجى له ذلك وما إلى ذلك. وأخيرا يقول عن الأنبياء الذين يكمل فيهم هذه الصفات كمالا حسنا. بل يجهدون أن يكوّنوها في سائر الناس المتبعين لهم.

وفي الباب الثالث منه يبين توزع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة. فقال إنه تحصل هذه السعادة بوجهين. الأول ما هو كالإنسلاخ عن الطبيعة البهيمية. وثانيهما ما هو كالإصلاح للبهيمية والإقامة لعوجها مع تعلّق أصلها. والأولى إنما تتأتى من قوم ذوي تجاذب. وهذا هو الذي يرومه المتأهلون الأشرافيون من الحكماء والمجذوبون من الصوفية فوصل بعضهم غاية مداها وقليل ما هم. وبقي آخرون مشتاقين لها طامحة أبصارهم إليها متكلفين لمحاكاة هيئاتها.

والثانية إنما ائمتها المفهمون وذوو إصلاح. وهم قائمون برياسة الدين والدنيا معا ودعوتهم هي المقبولة وسنتهم هي المتبعة. ويتمكن منها الذكي والغبي والمشتغل والفارغ. وللتوضيح عن هذا الصنف أورد بابا خالصا وهو الباب الرابع – باب الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية. فيقول: "اعلم أن طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني كثيرة جدا غير أني فهمني الله تعالى بفضله أن مرجعها إلى خصال أربع تتلبس البهيمية متى غطتها النفس النطقية وقسرتها على ما يناسبها وهي أشبه حالات الإنسان بصفة الملإ الأعلى معدة للحوقه بهم وانخراطه في سلكهم وفهمني أنه إنما بعث الأنبياء للدعوة إليها والحث عليها وأن

الشرائع تفصيل لها وراجعة إليها".[1]

وهذه الخصال الأربع كما تقدم ذكره هي (١) الطهارة (٢) الإخبات لله تعالى (٣) السماحة (٤) العدالة. وبيانها:-

(١) الطهارة:- حقيقتها أن الإنسان عند سلامة فطرته إذا تلطخ بالنجاسات أواحتاج إلى الخلاء إنقبضت نفسه ثم إذا تخفف عن الأخبثين وتدلك بدنه واغتسل إندفع عنه ذلك الإنقباض. أن الطهارة قسمان. (١) الطهارة الظاهرية (٢) الطهارة الباطنية. فالطهارة الظاهرية إنما تحصل بالغسل والوضوء ولكن الطهارة الباطنية لا تحصل بها. وبالجملة الطهارة أشبه الصفات النسمية بحالات الملإ الأعلى في تجردها عن الألواث البهيمية وابتهاجها بما عندها من النور. ولذلك كانت معدة لتلبس النفس بكمالها بحسب القوة العلمية. والذكي من الناس والذي يرى منه سلامة أحكام النوع وتمكين المادة لأحكام الصورة النوعية يعرف الحالتين يعني الطهارة وغير الطهارة ويحب الأول ويبغض الثاني لطبيعته.

(٢) الإخبات لله تعالى:- حقيقته الحالة التي تعتري للإنسان إذا ذكر وأمعن بآيات الله وصفاته تنبهت النفس النطقية وخضعت الحواس والجسد ووجد ميلا إلى جانب القدس. قال تعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"[2]. وهذه الحالة أقرب الحالات النسمية وأشبهها بحال الملإ الأعلى في توجهها إلى بارئها.

---

[1] المصدر السابق : ٥٣/١

[2] القرآن : ٢٨/١٣

(٣) السماحة:- حقيقتها كون النفس بحيث لا تنقاد لدواعي القوة البهيمية ولا يتشبح بها نقوشها ولا يلحق بها وسخ لوثها. بل هذا الرجل لا يعطي الدنيا قيمة. وفكره يكون دائما عن الآخرة. ولذلك إذا سرقت ماله النفيس لم يجد له بالاً لأنه سخي. وإن كان ركيك النفس صار كالمجنون وتمثلت صورة المال عنده دائما. وأورد الدهلوي ألقابا كثيرة للسماحة وضدها بحسب ما يكونان فيه. أما في المال يسمى سخاوة وشحا وأما في داعية شهوة الفرج او البطن يسمى عفة وشرة وأما في داعية الرفاهية والنبو عن المشاق يسمى صبرا وهلعا وأما في داعية المعاصي في الشرع يسمى تقوى وفجورا. وبالجملة السماحة هيئة تمنع الإنسان من أن يتمكن منه ضد الكمال المطلوب علما وعملا.

(٤) العدالة:- وهي ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة وتكون النفس كالمجبول على تلك الأفاعيل. وإذا تمكنت العدالة من الإنسان وقع اشتراك بينه وبين حملة العرش ومقربي الحضرة من الملائكة الذين هم وسائط نزول الجود والبركة في الأرض. فتكون العدالة بابا مفتوحا بينه وبين الملائكة. وإذا أراد الإنسان يمكن له أن يصعد بالعدالة إلى السماء العليا لنزول ألوانهم وصبغهم بمنزلة تمكين النفس من إلهام الملائكة والإنبعاث حسبها.

وفي الباب الخامس منه يبين طريق اكتساب هذه الخصال وتمكين ناقصها ورد فائتها. فقال: "اعلم أن اكتساب هذه الخصال يكون بتدبيرين - تدبير علمي

وتدبير عملي. والأول منهما يكون به اكتساب هذه الخصال لأن الطبيعة منقادة لقوى العلمية. وذلك أن يعتقد بأن له ربا منزها ومنعما ومجاز على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر. كما قال تعالى في الحديث القدسي: "أذنب عبدي فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي"[1]. والثاني أن يعتقد أن كمال الإنسان أن يتوجه إلى ربه حق التوجه ويعبدّه. وأن يجتهد للمشابهة بالملائكة الذين يعملون دائما ويركعون ويسجدون ويفعلون ما يؤمرون.

ويؤكّد الدهلوي خمسة خصال فنون. وهي عمدة علوم القرآن العظيم. وهي (١) التذكير بآيات الله وبأيام الله (٢) الإنذار والتبشير (٣) بيان خواص البر والإثم (٤) بيان الأحكام من الواجب والحرام وغيرها (٥) مخاصمة الكفار. وبيـّن بعد ذلك أسباب كل واحد من الخصال الأربع التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية. فقال: "أسباب الطهارة إزالة هذه الأشياء (أسباب الحدث) واكتساب أضدادها واستعمال ما تقرر في العادات كونه نظافة بالغة كالغسل والوضوء ولبس أحسن ثيابه واستعمال الطيب فإن استعمال هذه الأشياء تنبه النفس على صفة الطهارة. وأسباب الإخبات مؤاخذة نفسه بما هو أعلى حالات التعظيم عنده من القيام مطرقا والسجود والنطق بألفاظ دالة على المناجاة والتذلل لديه ورفع الحاجات إليه. فإن هذه الأمور تنبه النفس تنبيها قويا على صفة الخضوع والإخبات. وأسباب السماحة التمرن على السخاوة والبذل والعفو عمن ظلم ومؤاخذة نفسه بالصبر عند المكاره

---

[1] الشاه ولي الله الدهلوي: الحجة، ص : ٥٥/١

ونحو ذلك. وأسباب العدالة المحافظة على السنة الراشدة بتفاصيلها والله أعلم"[1]

وفي الباب السادس منه أورد الدهلوي الحجب المانعة عن ظهور الفطرة. وعدّ ثلاثة منها يعني معظم الحجب. (١) حجاب الطبع (٢) حجاب الرسم (٣) حجاب سوء المعرفة. وبعد ذلك عن معظم الخطأ. وهو شيئان الأول أن يعتقد في الواجب صفات المخلوق والثاني أن يعتقد في المخلوق صفات الواجب. فالأول هو التشبيه ومنشؤه قياس الغائب على الشاهد. والثاني هو الإشراك ومنشؤه رؤية الآثار الخارقة من المخلوقين.

وفي الباب السابع يبين طريق رفع هذا الحجب. فقال: "اعلم أن تدبير حجاب الطبع شيئان. أحدهما يؤمر به ويرغب فيه ويحث عليه والثاني يضرب عليه من فوقه ويؤاخذ به أشاء ام أبى. فالأول رياضات تضعف البهيمية كالصوم والسهر... والثاني إقامة الإنكار على من اتبع الطبيعة فخالف السنة الراشدة... وتدبير حجاب الرسم شيئان أحدهما أن يضم مع كل ارتفاق ذكرالله تعالى تارة بحفظ ألفاظ يؤمر بها وتارة بمراعاة حدود وقيود لا يراعي إلا الله. والثاني أن يجعل أنواع من الطاعات رسما فاشيا ويسجل على المحافظة عليها أشاء أم أبى...."[2]

---

[1] المصدر السابق : ٥٦/١

[2] المصدر السابق : ٥٧/١

الخاتمـــــة

يعتبر شعب الهند من أمة ذات حضارة قديمة. قد مضى فيها أفكار عديـــدة ذات قيمة. لكن مر الفكر الإسلامي بتجربة فريدة فيها تستحق الدراسة والبحث. إذ خاض فيها صراعا متواصلا مع الفكر الهندوكي حتى استطاع أن يدعم وجوده في العقلية الهندية يعينها من ناحية على التخلص من الإتجاهات الوثنية. ويمكنها مـــن ناحية أخرى على تصفية فكرتها من كثير من الشوائب الأسطورية.

لا شك أن الفكر الإسلامي الهندي كان أرهف إحساسا بالأخطار التي تهـــدد مستقبل الحضارة الإسلامية في الهند, إلا أن إدراكه لهذه الأخطار لـــم يكـــن مـــن الوضوح والفاعلية بحيث يحث على بذل المزيد من الجهد لرد آثارها السيئة علـــى حياة الهنود الثقافية والإجتماية. ولكن دور الفكر الإسلامي الهندي لم يقف في هذه المرحلة عند مجرد مناقشة الصحيح والدخيل من مبادئ الإسلام.

وكان الشاه ولي الله الدهلوي أول من شعر باحتضار حضارة الإسلام فـــي الهند, وحمل لواء فكر إجتماعي جديد تشد بعث الحياة الواقفة في حضارة لم تحقق كل أهدافها بعد, فعرض نظريات إجتماعية في ثنايا مختلف مؤلفاته فـــي العلـــوم الإسلامية وخاصة كتاب 'حجة الله البالغة'. ومن الموضوعات المختلفة التي فـــي الحجة ما له إهتمام كبير هو الأخلاقية.

الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب. لأنه يصير كالخلقة

فيه. وحسن الخلق قد يكون هبة من الله عز و جل بحيث يولد الإنسان كامل العقل. و حسن الخلق قد يكون مكتسبا بالمجاهدة و حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب – مثلا – ومن أراد أن يتخلق بالكرم و السخاء فعليه أن يتكلف الإنفاق في وجوده الخير و دعوة الناس إلى الطعام وبذل المال للمحتاجين. و يواظب على ذلك تكلفا مجاهدا نفسه حتى يصير ذلك طبعا له. فيسهل عليه الإنفاق. فيصبح كريما جوادا بالتطبع وهكذا في جميع الأخلاق المطلوبة والتى أمر بها الإسلام. وكان رسول الله صلعم قدوة وأسوة لنا فيها.

والمتأمل في التكاليف الشرعية يجد أنها جميعا ليست غايات في حد ذاتها و إنما هي وسائل للوصول إلى غايات. فمثلا الصلاة يقول الله تعالى في شأنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)[1]. إذا فالصلاة وسيلة. فالغاية بالصلاة أن ينتهي الإنسان عن الفحشاء والمنكر. فمن لم يكن هكذا بصلاته فقد قصرت به الوسيلة عن بلوغ الغاية. فأمر الصيام لوجدنا قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون).[2] فالصيام وسيلة لبلوغ التقوى. وكذلك الزكاة وما هي إلا نوع من التكافل الاجتماعي و إحساس الغنى الفقير وإيجاد التراجم بين الناس والتعاطف، لذا كان المن بإعطاء الزكاة للفقير مبطلا لها كما قال تعالى (يا

---

[1] سورة العنكبوت : ٤٥

[2] سورة البقرة : ١٨٣

أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ....)[1]. إذاً إن الزكاة لم تصل بصاحبها إلى غايتها وهي الرحمة والأخوة.

وكذلك جميع الأوامر مثل بر الوالدين وصلة الرحم وكفالة اليتامى وحسن الجوار ومعاشرة الزوجة بالمعروف وإكرام الضيف والعفو والصفح والكرم والأمانة والعدل. وما هي إلا أخلاقيات كريمة. إذ تسبب الصلح وصلح أفراده للمجتمع. ويعيش بها في سلام ووئام.... وكذلك جميع النواهي. كالنهي عن العقوق والزنا والسرقة والغش والخيانة والظلم والغيبة والنميمة والقتل والربا والبذاءة والسباب والعداوة وما إلى ذلك. ما هي إلا نهي عن سوء الخلق الذي يفسد ما بين الناس فيفسد المجتمع وتضيع الحقوق وتضمحل القيم.

إن الأخلاق باعتبارها علما مستقلا قائما بذاته لم يلق الحظوة عند المسلمين. وهناك ثلاثة عناوين تتكرر عندهم على وجه ظاهر أكثر من غيرها هي "كتاب الأخلاق" و"تهذيب الأخلاق" و"مكارم الأخلاق". وأول أخلاقي العرب هو ابن المقفع المترجم المشهور لكتاب "كليلة ودمنة". وأهمّ الأخلاقيين بعده : إخوان الصفا وابن مسكويه والغزالي ونصيرالدين الطوسي صاحب الكتاب المعروف "أخلاق ناصري". فمكان الشاه ولي الله الدهلوي لا يستطيع أن يرد. لانه كان عالما وفيلسوفا مشهورا وأورد مختلف الأحكام عن الأخلاق في حجة الله البالغة وغيرها من الكتب.

---

[1] سورة البقرة : ٢٦٤

وهو يمثل مدرسة فكرية نهضت بالدعوة إلى الإصلاح لتنقذ ما يمكن إنقاذه من أحوال الأمة المسلمة في الهند من تسلط النفوذ الإنكليزي. فحجة الله البالغة واحد من أربعة وخمسين كتابا عايشته عوامل مهمة كانت سببا في ظهوره. تتقدمها الثورة على الأهواء وعلى الإحتلال الإنكليزي للهند والملوك الضعفاء. ويعتبر الدهلوي رأس العلماء بما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكام إلى الخطر المقبل عليهم. وقد عارض قرار الإنكليز بفصل الملك عن القوة التنفيذية وقولهم " الخلق لله والملك للملك والحكم للشركة". وكان يقول 'إنه لا يتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضياء وأن معنى الإمام أن يرعى مأموريه ويقيم العدل بينهم'.[1]

كان الإمام الدهلوي صوفيا على أنه كان حكيما وفيلسوفا ومؤلفا ومدرسا وناهضا وما إلى ذلك. فهذا الوصف ملائم باعتبار هذا الكتاب. وإن لم يكن صوفيا لما استطاع أن يكتب مثل هذا الكتاب. وكذلك هذا الكتاب يعني حجة الله البالغة جواب ورد لمن ادّعوا بأن الإمام الدهلوي كان سلفيا. بل كان يكرم قوانين المذاهب حق الإكرام.

يشمل هذا الكتاب مئات من النكات واللطائف والتحقيقات النادرة. وهي تنبت على مواضع متفرقة عديدة من الكتاب. ولذلك له مكانة ممتازة فريدة في المكتبة

---

[1] عبد المنعم النمر: تاريخ الاسلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص : ٤١٣-٤١٦.

الإسلامية الزاخرة الشريفة.

وقد صدق العلامة شبلي النعماني إذ قال في كتابه 'علم الكلام':-

"إن الإنحطاط العقلي الذي أصيب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد بل في عهدهما كذلك لم يكن قد بقي أمل - نظرا إلى الإنحطاط العام - في ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذكي ولكن أبت القدرة الإلهية إلا أن تتجلى. فاذا بالإمام الدهلوي يولد في الهعد الأخير الذي كان الإسلام فيه في محنة وازمة عقلية علمية. وقد تضاءلت امام دقائقه ونكاته مآثر الغزالي والرازي وابن رشد".

ويزيد قائلا:

"لم يؤلف الإمام الدهلوي في علم الكلام كتابا مستقلا. ولذلك فلا يناسب عده من المتكلمين. ولكن كتابه 'حجة الله البالغة' الذي كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقائقها هو روح علم الكلام ومحوره".[1]

وقد قال الإمام الفاضل الشيخ عبد الحق الحقاني في مقدمة ترجمته لحجة الله البالغة المسماة بـ'نعمة الله السابقة':-

"إن الفن الذي ألف فيه هذا الكتاب، لم يؤلف فيه قبله شيء ولم يدون في مكان. فموضوع هذا الفن هو نظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان بأن احكام الله ورسوله صلعم لا عسر فيها ولا ضيق. ولا تخالف

---

[1] العلامة شبلي النعماني: علم الكلام، ص: ١٠٩-١١١.

الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان وينجذب اليها قلبه ثقة منه بأنهـا أحكـام توافق الفطرة وتتبنى عليها ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات. وحده أنه العلم الذي تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئـه جميـع العلـوم (المتعلقة بالحياة البشرية).

ولماّ نعتبر أهمية هذا الكتاب بالنسبة إلى العلوم الواردة فيه نفهم أن هذا هو متفرد في كثير من العلوم المبحوثة فيه. مثلا علوم عن المـلأ الأعلـى والسـافل وعلوم عن عالم المثال وكذلك في مباحث دقيقة عن حقيقة الروح وحقيقة المـوت وغيرها.

وكان الإمام الدهلوي هو أول صاحب الأسلوب الإسلامي الذي ربط العـدل بالمعاش والمعيشة. وكان له إلمام بطبيعة الإنسان ونفسانيته وهو يعرف موضـع الخلل ويشير إلى الأمراض المزمنة السائدة في المجتمع مثـل الحكـيم العـارف بأسلوب رصين جيد جذاب.

فيقول الدهلوي في سبب خراب البلدان:-

"غالب سبب خراب البلدان في هذا الزمان شيئان. أحدهما تضـييقهم علـى بيـت المال....والثاني ضرب الضرائب الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة...."[1]

هذه حصلها الدهلوي من جهة الله فيضانا وإلهاما. فلما أراد أن يكتب كتابـا

---

[1] الشاه ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ، ص: ١٣٨/١.

عن الأمور الشرعية بعد تقدم وتأخر جاء هذا الكتاب بحمد الله أبرع في الفضل وأرفع في الدرجة وأحسن البيان وأزين العنوان وأبلغ التبيان وأسبغ البرهان وأتم الفرائد وأعم العوائد وأقوى دليلا وأهدى سبيلا وأشد سدا وأحد ردا وأبدر إلى الناظر للإفهام أكثر على المناظر بالإفحام. ويثبت هذا الكتاب دعوات أهل السنة والجماعة وعقائده وأفكاره وآرائه خلافا لمن ادّعوا أنه يبين ما حالف أهل السنة والجماعة.

وهذه الحقوق لا تخفى على كل منصف طالعها بالمطابقة وشاهدها بالمرافقة. فانه يذعن بها لكونها كشمش الهاجرة بلا سحاب في الصدق والصواب ويعذر من عداه في ارتيابه لعدم الهداية والدراية ولكون الجزم بحكم الجهل أشد الغواية.

فإن الغاية القصوى لحياة الإنسان في الدنيا هي النجاة في الآخرة وتحصيل السعادة الأبدية. فبيّن الإمام الدهلوي في القسم الأول وكذلك في القسم الثاني من الحجة كيفية تحصيل السعادة الأبدية. وصور وجهين لهذا. أحدهما الإنسلاخ عن الطبيعة البهيمية. والثاني إيراد أربعة خصال يعني الطهارة الكاسبة للنسبة بالملكوت والإخبات لله تعالى الجالب للتطلع إلى الجبروت وسماحة النفس والعدالة. والأسلوب الذي قبلها الدهلوي لبيان هذا الأمر هو بديع وجيّد لم يُر بعده قط.

وفقنا الله لتحصيل السعادة الأبدية التي بيّنها الدهلوي في الحجة.

المصادر والمراجع

I. الكتب العربية

١. إبن المنظور، *لسان العرب*.، نشر أدب الجوزة, إيران, ١٤٠٥هـ.

٢. الأعظمي، ضياء الرحمان.، *الاتجاه الادبي لكتاب "حجة الله البالغة"* مجلة الجامعة، الجامعة الإسلامية، ملابرم، الهند، العدد الاول –مايو ٢٠٠٦م.

٣. بلاّ، شارس (أستاذ الحضارة العربية في جامعة باريس).، *رسالة في العلم*، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

٤. البنوري، محمد يوسف (نزيل القاهرة).، *النهضة السياسية الإسلامية بالهند ومكانة "ديوبند" فيها- دين، وعلم، وسياسة- حقائق تجب على الأمة معرفتها*، الإسلام(صحيفة إسلامية أسبوعية جامعية، العدد- ٢٥) جمادى الثانية ١٣٥٧هـ/ أغسطس ١٩٣٨م.

٥. الجائسي، سيد عليم أشرف(معرّب).، *الإمام الشاه ولي الله الدهلوي- عرض موجز لحياته وفكره*، [ترجمة كتاب البروفيسر محمد ياسين مظهر الصديقي الأردي] مركز الشاه ولي الله الدهلوي للبحوث العلمية، مهعد العلوم الإسلامية، جامعة عليكره الإسلامية، فبرائر-٢٠٠١م.

٦. الجاسر، حمد.، *قطر الطائف ومؤرخوه*، مجلة العرب- مجلة شهرية جامعة، داراليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الجزء الثاني-شعبان ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٧. الحسني، عبد الحي.، الأعلام- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنوادر، موسوعة للعلماء الهنود، مكتبة دارالعرفات، راي بريلي، الهند، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٨. دارج، طه عبد الصمد.، والجميلي، طايس.، *التربية الإسلامية*- للصف الرابع الثانوي وما في مستواه، الطبعة الأولى، ١٩٧٩- ١٩٨٠م.

٩. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *الإنصاف في بيان سبب الخلافة*, لاهور, باكستان.

١٠. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *البدور البازغة*، من سلسلة مطبوعات المجلس العلمي- نمبر:١٧، مطبوعة مدينة برقي برس، بجنور(يوبي)، الهند، ١٣٥٤هـ.

١١. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *الخير الكثير*، دهلي، الهند.

١٢. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *القول الجميل*, لاهور, باكستان.

١٣. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *حجة الله البالغة*، كتب خانه رشيديه، دلهي، الهند، ١٣٧٣هـ.

١٤. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *سطعات*, مطبع أحمد, دلهي, الهند.

١٥. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *طويل الأحاديث في رموز الأنبياء*, مطبع أحمد, دلهي, الهند.

١٦. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *عقد الجيد في أحكام الإجتهاد والتقليد*، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، الشارقة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٧. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *فتح الكبير*, مطبع العلمي, دلهي, العند.

١٨. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *فيصلة وحدة الوجود ووحدة الشهود*, مطبع مجتبعي, دلهي, الهند.

١٩. الدهلوي، الشاه ولي الله.، *فيوض الحرمين*, لاهور, باكستان.

٢٠. الرافعي، الدكتور مصطفى.، *من وقوف المنبر*، لجنة التعريف بالإسلام، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٥م.

٢١. رشدي، ياسين.، *من أخلاقيات الإسلام* (سلسلة كتب إسلامية-٥)، نهضة مصرللطباعة والنشروالتوزيع، مصر،١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٢٢. الزركلي، خيرالدين.، *الأعلام (الجزء الأول)*، دارالعلم للملايين، بيروت، مايو ١٩٨٠م.

٢٣. الزكي، الدكتور عبد العزيز محمد.، *الفكر الهندي من الهندوكية إلى الإسلام*، مجلة 'عالم الفكر'، وزارة الأعلام، الكويت، يوليو- أغسطس- سبتمبر ١٩٧٥م.

٢٤. السلمان، محمد عبد الله.، مزيدا من فلسفة التشريع الإسلامي، الرسالة (العدد-١٠٨٨، ١٥ رجب ١٣٨٤هـ/ نوفمبر ١٩٦٤م) الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

٢٥. السمان، الأستاذ محمد عبد الله.، *الكتب- الإمام الدهلوي في حجة الله البالغة*، مجلة الأزهر- مجلة شهرية جامعة, الأزهر، القاهرة، رمضان وشوال ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٢٦. عايش، د. بهاء الدين سليم.، *من وجوه الثقافة العربية في الهند: الإمام ولي الله الدهلوي*، مجلة الفيصل-مجلة ثقافية شهرية، السعودية، شعبان ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٧. عطية الله، أحمد.، القاموس الإسلامي (المجلد الرابع)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٨. العوّا، الدكتور عادل.، *المذاهب الأخلاقية عرض ونقد*، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٢٩. غازي، محمود أحمد.، *الإمام الشاه ولي الله ودوره في الحركات التجديدية في شبه قارة الهند واالباكستان*،(الحلقة الأولى والثانية) مجلة 'المنهل'، رجب وشعبان - ربيع الاول والثاني ١٣٩٧هـ/ مارس-ابرل ١٩٧٧م.

٣٠. قاسم، عبد الرزاق.، *منهج الدهلوي بين المصالح والحكمة الشرعية* (مقال)،آداب الرافدين، العدد الثامن، شعبان ١٣٩٧هـ/ آب ١٩٧٧م، جامعة الموصل.

٣١. محمد، الأستاذ السيد إبراهيم (المدرس المساعد،جامعة حلوان).، *في علم أسرار الدين:"الفطرة ومناهجها"*، دراسات عربية وإسلامية، القاهرة،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٣٢. معصومي، الاستاذ أبو محفوظ الكريم (أستاذ علوم القرآن والحديث بالمدرسة العالية بكلكتا، الهند).، *مسئلة صفات الذاكرين والمتفكرين للسلمى*، مجلة ' المجمع العلمي الهندي'، جامعة عليكره الإسلامية بالهند، رمضان ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٣٣. الندوي، أبو الحسن علي.، *الإمام الدهلوي* (رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الجزء الرابع) ، دارالقلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٤. النمر، الدكتور عبد المنعم.، *تاريخ الإسلام في الهند*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

II. الكتب الإنجليزية

1) ....., ***Cambridge History of India***, Vol.4, p.316, Delhi, 1970.

2) Ansari, Abdul Haq., ***Islamic Ethics: Concept and Prospect***, The American Journal of Islamic Social Sciences (Vol-IV Sep.), America, 1989.

3) Ansari, Muhammad Abdul Haq., ***Shah Wali Allah's Philosophy of the Islamic Shari'ah***, Islam And The Modern Age (A Journal, Vol. XIX No. 3), Zakir Husain Institutes of Islamic Studies, J.M.I., New Delhi, 1988.

4) Bakar, Osman., ***The History And Philosophy Of Islamic Sciences***, Islamic Texts Society, Cambridge, 1999.

5) Baljon, J.M.S., ***Religion and thought of Shah Wali Allah Dihlawi*** 1703-1762, Leiden, E.J. Brill, 1986.

6) Danish, Iqbal., ***Ethics In Islam*** (A Review about A Seminar Conducted By IOS, New Delhi In Haryana), The American Journal of Islamic Social Sciences (Vol-6, No-1), 1989.

7) Edwards, Paul (chief editor)., ***The Encyclopedia of philosophy*** (V-3), The Macmillan company, New York, 1967.

8) Eliade, Mircea., ***The Encyclopedia of Religion***, Vol-2, Macmillan Publishing company, New York, 1987.

9) Gibb, H.A.R. (chief editor)., ***The Encyclopedia of Islam*** (V-1), Lei den, 1967.

10) Jaffar, Ghulam Muhammad., ***Teachings of Shah Wali Allah And The Movement of Sayyid Ahmad Shahid of Bareilly***, Hamdard Islamicus (a Journel, Vol. XVI No. 4), Hamdard Foundation, Pakisthan, 1993.

11) Jalabani, G.N., ***An English Translation of Sate'at by Shah Wali Allah***, Kithab Bhavan, New Delhi-02.

12) Jalabani, G.N., ***Life of Shah Waliyullah***, Idarah-I Adabiyat-I Delli, 2009 Qasimjan ST, Delhi (India), 1980.

13) Jalabani, G.N., ***Teachings of Shah Waliyullah of Delhi***, SH. Muhammad Ashraf Kashmiri Bazar, Lahore (Pakistan), 1967.

14) Kidwai, Prof. Abdul Rahim., ***Shah Waliullah Dehlavi-An Introduction To His Illustrious Personality And Achievements*** (Translation of Prof. Mohammed Yasin Mazhar Siddiqui's Urdu book), Shah Waliullah Dehlavi Research Cell, Institute Of Islamic Studies, Aligarh Muslim University, Aligarh, 2001.

15) Leaman, Oliver., ***A Brief Introduction to Islamic Philosophy***, Blackwell Publications, U.S.A., 1999.

16) Legenhausan, Muhammed., ***Contemporary Topics of Islamic Thought***, Islamic Culture And Relations Organization, Islamic Studies Dept., Centre for cultural and international studies, Al-Hoda publishers, Thehran, Iran, 2000.

17) Mahajn, D.P., ***Muslim Rule in India***, Delhi, 1971.

18) Muztar, Allah Ditta., ***Shah Wali Allah: A Saint Scholar of Muslim India***, n.p. Islamabad (1979).

19) Nadwi, Abul Hasan Ali., ***Saviours of Islamic Spirit***, Renderd in to English By Mohinddin Ahmed, Islamic Research and Publications, Lucknow, 1971.

20) Nasr, Sayyed Hussein., and Leaman, Liver., ***History of Muslim Philosophy*** (Part I&II), Rout ledge, London & New York, 1996.

21) Srivastava, A.L., ***Shah Walli-Ullah and the Maratha-Afghan Contest for Supremacy***, Journal of Indian History (Vol- XVIX), Dept of History, University of Kerala, T.V.M, 1971.

22) Umarudeen, M., ***The Ethical Philosophy of Al-Gazzali***, Aligar, A.M.U, 1962.

'Ethics' in the Writings of Shah Wali Allah al-Dihlawi with Special Reference to 'Hujjat Allah al-Balighah'

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of requirements for
the award of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

THAJUDEEN. A.S

Under the Supervision of

Dr. RIZWANUR RAHMAN

Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi - 110067
2007